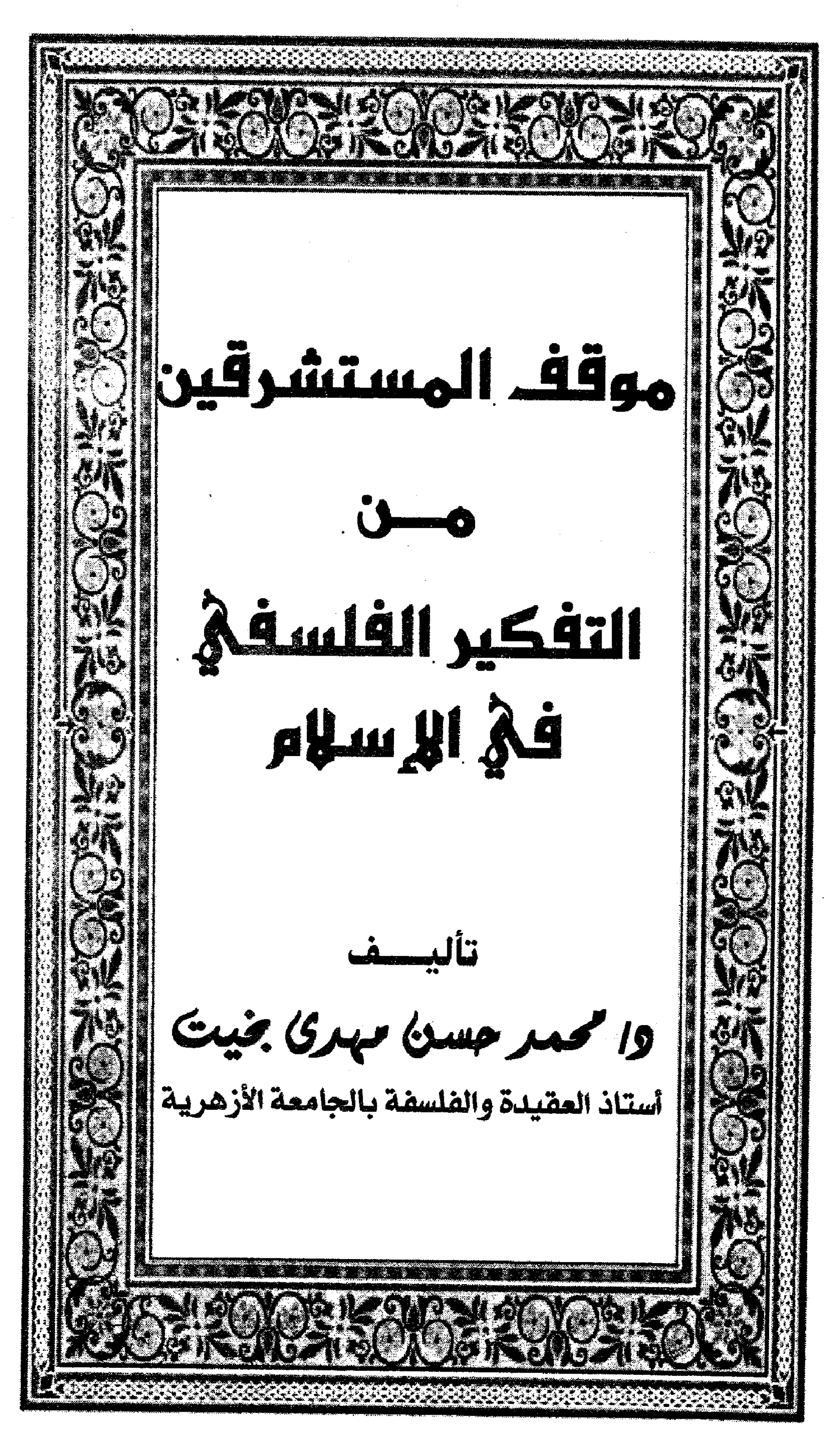


موقف المستشرقين من التفكير الفلسفي في الإسلام

تأليف

د/ محمد حسن مهدي بخيت
أستاذ العقيدة والفلسفة بالجامعة الأزهرية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمــد لله رب العالمــين، يؤتي الحكمة من يشاء، ومن يؤت الحكمــة فقــد أوتــي خيرا كثيرا، وما يذكر إلا أولوا الألباب، والصلاة والسلام على خاتم المرسلين سيدنا محمدبن عبدالله، الذي أوتي الحكمة وفصل الخطاب، وعلى آله وأصحابه ومن تبع هداهم إلى يوم الدين.

وبعــد،،،

فهــذا البحث يعالج قضية هامة من القضايا التي تتصل بالفكر الفلــسفي فــي الإســلام، وهي قضية الأصالة الفكرية عند المسلمين، وقــدرتهم علــى الإبداع العقلي. وهذه القضية هي أبلغ قضايا الفلسفة الإســلامية خطــورة، لأنها لا تتعلق بجزئية من جزئياتها فحسب، بل تــتعلق بوجــودها وكيانها بأسره. فما زلنا بين الحين والحين، نسمع صيحات من هنا وهناك تنكر أن يكون للمسلمين أصالة فكر أو فلسفة، بــل تحــاول هذه الصيحات، أن تجرد مفكرى الإسلام من كل ميزة أو عبقــرية، وتحــيلهم على غيرهم في كل ما جاءوا به أو تحدثوا عنه، وكأن هؤلاء يودون أن تجئ الفلسفة ضمن تعاليم الإسلام حتى يؤمنوا بأن للمسلمين فكراً فلسفيا.

فالفكــر يعتبــر أهم مقومات الشخصية ، سواء كان ذلك على مــستوى الأفــراد أو على مستوى الأمم، فكما أن قوة الشخصية عند الفرد تقاس بماله من فكر متميز ورأي مستقل ، فكذلك تقاس شخصية الأمة بمالها من فكر مستقل أصيل.

فالأمـــة التـــي تتمتع بفكر أصل مستمد من عقيدتها وتقاليدها وقـــيمها تكون أمة ذات كيان خاص، ومثل هذه الأمة ترفض أن تكون تابعة لأحد، وتأبي أن تكون ذيلا لغيرها من الأمم. أما الأمة التي ليس لها فكر خاص، أصيل فإن شخصيتها تكون ضعيفة متهافتة ، يمكن أن تنسلخ منها بسهولة، وتنساق في ركاب غيرها من الأمم الأخرى.

ومـــن ثـــم فإن القضاء على شخصية أمة ما، وإهدار ذاتيتها يتوقف على سلخها من فكرها الذي تكمن فيه عقيدتها وقيمها وتقاليدها (فـــإذا نجحت أمة من الأمم في أبعاد أمة أخرى من مقوماتها الأصلية التـــي تكمن في فكرها استطاعت أن تسيطر عليها، وأن تجعلها تابعة لهـــا، ولكن النجاح في أبعاد أمة عن تراثها الفكرى لابد له من تمهيد يعمل على تشكيل هذه الأمة في قدراتها العقلية).

وهـــذا التـــشكيك هـــو الـــدور الـــذي قـــام به المستشرقون المتخصـــصون، تجـــاه الفلسفة الإسلامية ، حيث زعموا أن المسلمين ليس لهم قدرة على الإبداع الفلسفي، وأن ما لديهم من فلسفة ليس إلا صـــورة مـــن الفلـــسفة الإغـــريقية ، وهـــذا يرجع - من وجهة نظر المستـــشرقين - إلـــى أن العقلـــية الإسلامية لا قدرة لها على الابتكار والتفلسف، وأن القرآن الكريم قد حال بينهم وبين التفكير العقلي الحر، فـــإذا أرادوا أن يـــتقدموا في هذا المجال ما عليهم إلا أن يسيروا في ركـــاب الغرب، وأن يأخذوا بفكر الغرب وحضارته، وأن يبعدوا الإسلام عن مجال التوجيه.

والحـــق أن الفلسفة لم تأتي من فراغ، ولا تقوم إلا على تراث الأقدمـــين، فهي بناء شامخ شيدت صرحه الأجيال، جيلا بعد جيل، وقد اســـتفاد فلاســـفة الإسلام من فلاسفة اليونان، كما استفاد آخرون، كما

أخـذوا من حكمة الصين والهند، كما فعل الإغريق من قبلهم، ورفعوا رايـة التوفيق بين آراء الفلاسفة الأقدمين وبين الفلسفة والدين، على أسـلوب مبتكـر، وأتوا بالنظريات العميقة في قضايا فلسفية مختلفة، وكان لهم الأثر الفعال في فلسفة العصور الوسطى، وكانوا حلقة حقيقية وضرورية في سلسلة التيارات الفلسفية العالمية.

ولمـا كان الاختلاف في وجهات النظر، والحكم على المسائل، أحكامـا متبايـنة أمـر مألـوف وسمة طبيعية من السمات التي تميز الدراسات الإنسانية عامة، قد أختلف مؤرخو الفكر الفلسفي -في القديم والحديث معا- حول تقييم الإبداع والابتكار عند العرب والمسلمين وذلك تبعا لاختلافهم في موقفهم من العقلية العربية والإسلامية.

لكـن أن تكـون هذه الأفكار جائزة إلى حد يلفت نظر الباحث المنـصف، ويثيـر شكوكه في الدوافع الكامنة خلف هذا الحكم الجائز فأمـر آخـر، وهـذا هو الذي حدث في النظر إلى الفلسفة الإسلامية، بمعنـى أن الاتجاه السائد والعام ينتهي في نهاية الأمر إلى الحكم بعدم وجود فلسفة إسلامية على الحقيقة، ويعجز المشتغلين بها عن الإبداع في مجال الفلسفة.

إن النـزعة الغـربية حاولت -منذ زمن بعيد- اتهام الشرقيين بأنهم بطبيعتهم أقل من الغربيين في جميع ميادين الحضارة، وتأثر بهذا الفكرة بعض مؤرخي الفلسفة الإسلامية، فكتبوا في الفلسفة الإسلامية على أنها مجرد تقليد، أو تلفيق، أو ترجمة للفلسفة الإغريقية.

مـن هـنا تبدو أهمية الكشف عن أصالة التفكير الفلسفي في الإسـلام، ونحـن إذ نحـاول أن نكشف هذه الأصالة، فإنما نحاول في الوقت نفسه أن ندرأ عن أمتنا وديننا الاتهامات الباطلة، وأن نبرز قدرة

العقلية الإسلامية على الإبداع والابتكار، إذ أن الأمة الإسلامية تتميز بعقيدتها وقيمتها عن أية أمة أخرى، ومن ثم لابد أن يكون لها فكرها الأصيل المميز بسماته وملامحه الخاصة التي تجعل له طابعاً متميزاً عن الفلسفات الأخرى.

ولكن المستشرقين حاولوا أن ينكروا أو يشككوا في هذه الحقيقة، وساقوا المبررات التي حاولوا بها أن يؤيدوا رأيهم، وهذا هو الذي دفعنا إلى بذل الجهد في معالجة هذه القضية ومناقشتها مناقشة موضوعية دون تعصب لفكر أو رأي معين ،كي نصل في النهاية إلى وضع الفلسفة الإسلامية في مكانها من حيث الأصالة والابتكار، أو التقليد والترديد، وبالله الهداية والتوفيق.

وبعد :

فهذا ما هداني الله تبارك وتعالى إليه في بحثي هذا، فإن كنت قد وفقت فذلك بفضل الله تعالى وتوفيقه، وإن تكن الأخرى فعذري أنني بشر أخطئ وأصيب، وحسبي ما ابتغيت إلا وجه الحق والصواب.

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب

وصلى اللهم وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه الكرم

دكتور

محمد المهدى

أستاذ العقيدة والفلسفة بالجامعة الأزهرية

موقف المستشرقين من التفكير الفلسفي في الإسلام[1]

تعرضت الفلسفة الإسلامية لهجوم عنيف من جانب بعض المستشرقين، فبعضهم عالج قضية الأصالة والتقليد بموضوعية وتوصل من خلال معالجته إلى أن العقل العربي الإسلامي له من الخصائص العقلية ما للإنسان في أي مكان ومن أي جنس، ومن هذه الخصائص العمل العقلي المنظم الذي يسمى عادة باسم الفلسفة، وفريق آخر رأي أن العقل العربي الإسلامي ليس له إنتاج في مجال الفلسفة والعلوم العقلية فمن وجهة نظره أن الجنس العربي ليس من صفاته التعمق في التفكير ولا الابتكار في الرأي والحلول لما يواجهه من مشاكل [2].

الاتجاه الأول :-

يرى أصحاب هذا الاتجاه أن الإنسان العربي له من الخصائص العقلية الطبيعية ما للإنسان في أي مكان، ومن أي جنس، ومن هذه الخصائص العمل العقلي المنظم والتفكير السليم الذي يسمى عادة باسم

---

(1) تطلق كلمة مستشرق بالمعني العام على كل عالم غربي يشتغل بدراسة الشرق كله في لغته وآدابه وحضارته. وأديانه، ويسمى مستشرقا كل من يتعلم أو يعلم المعارف المتصلة بأحد أوجه الحضارات الشرقية، أو من يؤلف في موضوعات شرقية أو من يترجم أعمالا شرقية.

انظر : الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، د./ محمود حمدي زقزوق، ص١٨.

(٢) كتابنا: الفلسفة الإسلامية بين الأصالة والتقليد، ص٣٠ ط: الصفا والمروة ١٩٩٧ك.

الفلسفة، ويعرف هؤلاء الفلسفة الإسلامية بأنها: تفكير الجماعة الإسلامية في الكون وفيما بعده وفي الإنسان فرداً وجماعة" [1].

ولذلك فإنه من الطبيعي أن يكون للعقل العربي إنتاج فكري يتسم بالابتكار، وأن هذا العقل بما انتج من فكر وما أبدع من رأي قد شارك في بناء الصرح الشامخ للفكر الإنساني. "وعلى هذا لا يرى أنصار هذا الاتجاه أن الفلسفة العربية أو الإسلامية عبارة عن فكر الإغريق وحده الذي احتضنه العرب أو المسلمون، بل لقد استقل هذا العقل ببعض المشاكل الفكرية، وكان له آراؤه الخاصة به سواء في المشاكل التي عرفها عن الإغريق أو في غيرها من التي تنسب إليه"[2].

فهؤلاء يعترفون بقيمة العقل العربي ومساواته مع عقل أي شعب آخر في كونه له إنتاج عقلي يتسم بالابتكار ، إن لم تحل دون انتاجه أو ابتكاره حوائل خارجة عن ذاته.

ومن هذا الفريق المؤرخ الألماني للثقافة العقلية "**ديلتاي**" الذي يعترف بأن العقلية العربية بحق لها أن تنتج كعقلية أي جنس آخر، وأنه قد أنتجت بالفعل في كثير من الموضوعات، وأنه كان لهذا الإنتاج أثر في تطور العقلية الغربية،وفي ذلك يقول: إن الغرب مدين في توسيع نطاق الجبر اليوناني، وهم بلا شك قد هيئوا الأمر بتقدمهم الخاص إلى نشأة العلم الطبيعي الحديث"[3].

---

(١) انظر: الجانب الإلهي من التفكير الإسلامي، د./ محمد البهي، ص١٥، ط٦، القاهرة ١٩٨٢م.

(٢) السابق، ص١٧.

(٣) نفس المصدر ص١٥ ، ١٦.

ومعنـــى ذلــك أن استعداد العربي للتعليم أمر لا شك فيه، وأن قدرة العربي على الفهم والتحصيل لا تقل عن غيرها من قدرات شعوب أخــرى، ويرتبط بذلك أن أي حكم يصف العقل العربي بعدم القدرة على التفلسف أو الجمود، أو عدم المقدرة على التحضير والتطور، نقول إن أي حكم يرى أن هذه خواص ثابتة في طبيعة العقل العربي ولد بها إنما هو حكم جائز متعسف.

ويــؤيد هــذا ما ذهب إليه المستشرق "مومنتـي" حيث يقول: ورأينا أن سر نفوذ أرسطو العجيب على العقل العربي وعلى المسلمين هو في طريقه تفكيره، سواء أكان في الناحية العلمية التجريبية أم في الناحية المنهجية المنطقية.

ويلاحــظ فـيما عــدا ذلك أن الفلسفة الإسلامية وإن كانت في مــبدئها وجوهــرها أرسطية لكن رغم ذلك ليست صورة مكرر للأفكار الإغــريقية، إذ العرب وإن احترموا الإغريق دائما كأساتذة لهم، لكنهم فهمــوا كـيف يحــتفظون حقــا بطابــع الأصالة والابتكار في فهمهم وتــصويرهم لتعالــيمهم، ذلك الطابع الذي جعل لكتبهم ورسائلهم جدة خاصة (١).

ومــن هــؤلاء المنصفين الغرب الأستاذ "كاردانـوس" : وهو فيلسوف ورياضي إيطالي، يقول عن فيلسوف العرب "الكندي" إنه واحد مــن بين الأثنى عشر المختارين في العالم. ويقول الأستاذ:" فلفت" عن

---

(١) انظــر: كتاب الإسلام لمؤلفه مونتنى، أستاذ اللغات الشرقية في جامعة جنيف، ص٥١ ط: ١٩٢٣م نقلا عن الجانب الإلهي ص١٦.

"ابـــن خلـــدون" إن أفلاطون وأرسطو وأوجستين: "ليسوا نظراء" لابن خلدون" وكل من عداهم غير جدير، حتى بأن يذكر إلى جانبه" [١].

أمـــا فـــيما يـــتعلق بالثقافة الإسلامية ككل وأنها كانت إلهاما ومصدرًا وعاملا أساسيا للحضارة الغربية يقول المستشرق "بـريفولت" في كتابه بناء الإنسانية: "فإنه على الرغم من أنه ليس ثم ناحية واحدة مـــن نواحي الازدهار الأوروبي، إلا ويمكن إرجاع أصلها إلى مؤثرات الـــثقافة الإسلامية بصورة قاطعة، فإن هذه المؤثرات، توجد أوضح ما تكون، وأهم ما تكون في نشأة تلك الطاقة التي تكون ما للعالم الحديث مـــن قوة متمايزة ثابتة ، وفي المصدر القوي لازدهاره: أي في العلوم الطبيعية وروح البحث العلمي. إن ما يدين به علمنا لعلم العرب، ليس فيما قدموه إلينا من كشوف مدهشَة لنظريات مبتكرة فحسب، بل يدين هـــذا العلـــم إلـــى الثقافة العربية بأكثر من هذا، إنه يدين لها بوجوده نفسه"[٢].

ومهما يكن من أمر فإن هناك من المستشرقين المنصفين الذين تهـــيأت لهـــم مـــادة وفيرة من استطلاع تلمس الأصالة، في الفلسفة الإســـلامية، فهـــم يعترفون بقيمة العقل العربي ومساواته مع عقل أي شعب آخر في أنه يصح أن يكون له إنتاج عقلي يتسم بالابتكار.

---

(١) انظـــر: التفكيـــر الفلسفي في الإسلام، د./ عبدالحليم محمود ص١٩٧، ط: دار المعارف ١٩٨٤م. نقلا عن تجديد التفكير الديني، لمؤلفه محمد إقبال.

(٢) انظـــر: المرجع السابق، ص١٩٨، نقلا عن تجديد لتفكير الديني، لمؤلفه محمد إقبال.

ونرى أن هذا الاتجاه يوقف بالفعل هذه الحملات الهوجاء التى تنـبع مـن الجهل بحقيقة التراث الفكري لدى المسلمين، وتقضى على روح التعالى وازدراء جهود الآخرين [١].

إن هذا خير من محاولات كثيرة من بعض المستشرقين – كما سـنرى في الصفحات القادمة– تلك المحاولات التي أرادت أن تتلمس لكل فكرة مصدرا أجنبيا، دون دراسة جادة للاحتمالات الأخرى، ودون إمعـان فـي هذه الحقيقة التي تشير إلى أن الفكر حين ينتقل إلى بيئة أخـرى قل أن يحتفظ بطابعه الأصلي ولابد للبيئة الجديدة من أن تترك بصماتها عليه[٢].

الاتجاه الثاني :-

لقد جحد أنصار هذا الاتجاه المنزلة التي شغلها فلاسفة الإسلام فـي تـاريخ الفلسفة، وزعموا أن العرب ليس من صفاتهم التعمق في الفكـر ولا الابتكار في الرأي، وأن فكرهم مجرد عن كل مزايا التفكير الفلـسفي. فليس عند العرب كأمة وعند المسلمين كملة مذهب فلسفي محكم البنيان، أو نظرة فكرية عميقة للإنسان والكون والحياة، أو حلول صـائبة لمـا واجه حياتهم ومجتمعهم من مشكلات، وأن ما عرف عن العـرب مـن فكر فهو حكم قليلة مفككة ووصايا تحمل نصائح خلقية، وهـي دائمـا خالـية مـن البحث والتعليل. بل إن ما يسمى بالفلسفة الإسـلامية ما هو إلا مزيج من أرسططاليسية وأفلاطونية حديثة، نقله السريان إلى العرب وانتشر في بلاد بعيدة عن الجزيرة العربية، وتحت ظل سلالة العباسيين التي طغت فيها الروح الفارسية.

---

(١) كتابنا: الفلسفة الإسلامية بين الأصالة والتقليد، ص٣٤ – ٣٥.

(٢) السابق، ص٣٥.

وبناء على ذلك فهم يعرفون الفلسفة الإسلامية بأنها "أراء المدارس الإغريقية الفلسفة التي دخلت الجماعة الإسلامية عن طريق الترجمة والنقل، واشتغلت بها طائفة من علماء المسلمين إما بشرحها أو بالتوفيق بينها وبين مبادئ الدين الإسلامي إن بدأ هناك تعارض أو تناقض"[1]، أمثال الكندي والفارابي وابن سينا وابن رشد" وغيرهم.

فعمل المسلمين بناء على هذا الافتراء ينصب على نقل التراث الإغريقي الفلسفي وشرحه وتفسيره والتأثر به، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على تعصب أنصار هذا الرأي لبني جنسهم ولدينهم وخلو حكمهم هذا من الموضوعية التي يتطلبها أي بحث علمي.

فحينما أنشئت الجامعة المصرية القديمة -على سبيل المثال- واستدعى الأستاذ "**سانتلانا**" لتدريس المذاهب الفلسفية، بدأ دراسته بتلخيص الفلسفة اليونانية، وجزم منذ مبدأ دراسته: أن "العلوم الإسلامية مؤسسة منذ بدء أنشأها على علوم اليونان، وأفكار اليونان، بل وعلى أوهام اليونان" [2].

تعصب الأستاذ "**سانتلانا**" إذن، منذ محاضرته الأولى، لفكرة معينة ووضع سامعيه أمام اتجاه خاص سيسلكه، ولم يجعل هذا الاتجاه قابلاً للاحتمال، أو الأخذ والرد، وإنما أطلق الأمر إطلاقا عاما، وجزم به في صورة لا يستسيغها العلم الدقيق.

---

(١) الجانب الإلهي من التفكير الإسلامي، د./ محمد البهي، ص١٥ ط٦: القاهرة : ١٩٨٢م.

(٢) تاريخ المذاهب الفلسفية لمؤلفه سانتلانا، نقل عن التفكير الفلسفي في الإسلام، ص١٨٤.

ثـم أخذ معتمداً على القضية التي أطلقها،يتلمس أية ناحية من نواحي التشابه بين الأفكار الإسلامية ، والأفكار اليونانية، فجعل أصلها يونانيا، ويجزم بأن المسلمين أخذوها من اليونان.

وذلـك نمـط مـن البحث: لا يسير فيه إلا المتعصبين، إذ إنه في مـناهج البحث الدقيقة يشترط للقول بتقليد اللاحق للسابق أمور، منها أن يثبت ثبوتا بينا بالآتي:

١- التشابه أو التطابق التام بين الفكرتين.

٢- أن يثبت بطريقة لا لبس فيها أن الأخير قد تلقن مباشرة عن السابق.

٣- ومـن أهم الشروط: ألا تكون الأصالة أوالعبقرية متوفرة في اللاحق أي أن تكون في اللاحق طبيعة التقليد، فإذا ما خرج عـن طبـيعة التقليد إلى الأصالة أو العبقرية فقد خرج عن شبهة المحاكاة وعن شبهة التقليد [(١)].

ومن الواضح أن هذا المستشرق لم يراع هذه الشروط ذلك أنه جزم بأن أفكار اليونان وعلومهم وأواهم، كانت أساساً للعلوم الإسلامية مـنذ بـدء نشأتها، مع أن نشأة العلوم الإسلامية، يمكن أن يقال: أن أسـسها ومـبادئها تدرجت، تكونا ووضعاً منذ بدء الإسلام نفسه، أي أساسـها كـان الوحي نفسه. "والعلوم الإسلامية، إذا أطلقناها ، كانت: عقـيدة وشريعة وأخلاقا، كانت تفسيراً للقرآن وشرح للحديث، وجدلا

---

(١) التفكير الفلسفي في الإسلام، ص١٨٤.

حول العقيدة التي نزل بها الوحي، وكانت اتجاها روحيا يستمد مبادئه ونظرياته من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة (١).

ونزعة "سانتلانا" إنما هي نزعة مواطنيه الغربيين، والنزاع بين الشرق والغرب قديم ومستمر، وهو ليس نزاعا عسكرياً فقط، إنما هو نزاع فكري أيضا، والغرب يريد أن يقلل من شأن الشرق ما أمكن، ليسود ويستعلي، وكما استعمل في سبيل السيادة المالية الوسائل المادية، استعمل أيضا لإضعاف الروح المعنوية في الشرق الوسائل الفكرية (٢).

ويمثل هذا الاتجاه بعض المستشرقين أمثال "رينان" و"دي بور" و"جوتيه" و"كوزان" و"وتنمان" وآخرون. وقد افترق هؤلاء إلى فريقين:

أحدهما: تعصب لدينه وقصر الفلسفة على اليهود أو النصارى.

والآخر: تعصب لبني جنسه وقصر الفلسفة على الجنس الآري.

أولا: المتعصبون لدينهم :-

وقد تزعم هذا الفريق "تنمان"(*) و"كوازان"، فالذي يطالع عبارات "تنمان" يلاحظ عليه سوء فهمه لطبيعة النص الديني عند

---

(١) السابق، ص ١٨٦.

(٢) كتابنا: الفلسفة الإسلامية بين الأصالة والتقليد، ص٣٩.

(*) يعد المستشرق الألماني تنمان من أوائل الذين تحدثوا عن الفلسفة الإسلامية وفلاسفتها، وقد ظهر كتابه المختصر في تاريخ الفلسفة عام ١٨١٢من في طبعته الألمانية، وقد سيطرت فكرة العنصرية السامية على تفكيره وحكمه، والفلسفة الإسلامية في تصوره لا تخرج عن الفلسفة اليونانية، وقد نقلت أو عربت.

المسلمين، الأمر الذي جنح به إلى مهاجمة كتابهم المقدس -القرآن الكريم- زاعما أنه المسئول عن تأخر الدراسات الفلسفية وغيرها، فهو يقول:" العرب شعب مجبول على استعدادات فطرية قوية وثابة، ولقد كان أولا صابئيا ثم استمد حماسة دينية وحربية من دين محمد صلى الله عليه وسلم، وهو دين شهواني وعقلي معا، ...... وفي قليل من الزمن تغلب العرب على جزء عظيم من آسيا وأفريقيا وأوربا وأخضعوه للإسلام، ...... وكان اختلاطهم بالأمم خصوصا اليهود واليونان، وتقدمهم في ألوان الترف، وحاجتهم إلى الاستعانة بصناعة الأجانب من الأطباء والمنجمين، وتأثير هؤلاء فيهم.

كل أولئك ولد فيهم شهوة متأججة إلى تحصيل المعارف، وقد عاون هذه النزعات خلفاء العباسيين (*)، الذين أمروا بنقل كتب اليونان إلى العربية، وأنشأوا المدارس ودور الكتب الحافلة(٢).

ويستطرد "تنمان" في محاولة سلبه العقلية الإسلامية من كل خصائص الأصالة والابتكار قائلا: "ويكاد يكون "أرسطو طاليس" مع شراحه إلى "فيلونيوس" -يحى النحوى- من بين سائر الفلاسفة هو الذي استرعى أنظار العرب.

(*) خلفاء العباسيين أمثال المنصور الذي ولي الخلافة من ٧٥٣ – ٧٥٥، والمهدي الذي توفي سنة ٧٨٤، وهارون الرشيد، وكان خليفة ما بين ٧٨٦ – ٨٠٨ ، والمأمون الذي ولي الخلافة من ٨١٣ – ٨٣٣هـ، والمعتصم الذي توفي سنة ٨٤١هـ.

(٢) انظر: تمهيد لتاريخ الفلسفة، للشيخ مصطفى عبدالرازق، ص٦، ط: لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٥٩م.

وقد تلقوا جملة ما ألفه "أرسطو"، ولكنهم تلقوها على الحقيقة عن تراجم ناقصة جداً بوساطة خادعة، هي وساطة المذهب الأفلاطوني الجديد، .... لكن عدة عقبات ثبطت تقدمهم في الفلسفة، وهذه العقبات هي:

١- كتابهم المقدس الذي يعوق النظر العقلي الحر.

٢- حزب أهل السنة، وهو حزب متمسك بالنصوص.

٣- أنهم لم يلبثوا أن جعلوا لأرسطو سلطانا مستبداً على عقولهم، ذلك إلى ما يقوم دون حسن تفهمهم لمذهبه من الصعوبات.

٤- ما في طبيعتهم القومية من ميل إلى التأثر بالأوهام.

من أجل ذلك لم يستطيعوا أن يصنعوا أكثر من شرحهم لمذهب أرسطو، وتطبيقه على قواعد دينهم الذي يتطلب إيمانا أعمى، وكثيراً ما أضعفوا مذهب أرسطو وشوهوه. وبذلك نشأت بينهم فلسفة تشبه فلسفة الأمم المسيحية في القرون الوسطي، تعنى بالبراهين الجدلية المتصفة، وتقوم على أساس من النصوص الدينية[١].

وإذا انتقلنا إلى مستشرق آخر ممن تعصب لدينه المسيحي وهو "**فكتوركوزان**" نجده يقول:" المسيحية هي آخر ما ظهر على الأرض من الأديان، وهي أيضا أكملها، والمسيحية تمام كل دين سابق، وغاية الثمرات التي تمخضت عنها الحركات الدينية في العالم وبها ختمت، الدين المسيحي ناسخ لجميع الأديان ..... كذلك كان الدين المسيحي إنسانيا واجتماعيا إلى أقصى الغايات، ومن أراد دليلا فلينظر

---

(١) السابق، ص٧، وأيضا: حقيقة الفلسفات الإسلامية، د./ جلال العشري، ص٤٢، ٤٣ ط: دار الكتاب.

مــاذا أخــرجت المسيحية للناس، أخرجت الحرية الحديثة والحكومات النيابــية، ثم لينظر من دون المسيحية ماذا أخرجت منذ عشرين قرنا سائر الأديان، ماذا أنتج الدين البرهمي والدين الإسلامي وسائر الأديان التي لا تزال قائمة فوق ظهر الأرض؟

أنــتج بعضها انحلالا موغلا – وبعضها أثمر استبداداً ليس له مدى[1].

---

(١) نفس المصدر ص ٨ ، ٩ ، وأيضا : حقيقة الفلسفات الإسلامية، ص٤٢، ٤٣.

دحض افتراءات هذه الفرق:

أولا: مناقشة المستشرق "تنماغ" فيما ذهب إليه: -

١- زعمه أن القرآن الكريم يعوق النظر العقلي الحر، هذا ادعاء باطل وحكم على الأمور دون تحقيق وتمحيص، فإننا نقرر بكل ثقة واطمئنان رفض هذه الدعوة الجائزة ، القرآن الكريم – وهو أول وأوثق المصادر للتعاليم الإسلامية – لا يملك المنصف أن يتهمه بمعادة الفكر، أو تقييده وتحريمه، بل إن الأمر على النقيض من ذلك تماماً، فالذي يتصفح القرآن الكريم يجد أن الأدلة على أنه لا يمكن أن يقف عقبة في طريق النظر العقلي الحر، لا تنحصر ولا يمكن أن يكون حجر عثرة في سبيل الفكر الإنساني من حيث هو فكر، فقد شجع على الفكر، وأمر به وجعله أمراً لازما لا مجال لتجاهله ولا إعفاء لأحد من مزاولته، فهوفي جملته دعوة صريحة إلى التأمل الهادف الذي يملأ العقل والقلب ويدفع إلى تصحيح السلوك، إنه ملئ بالدعوة إلى التذكر والتدبر والتفكر والتعقل والاعتبار.

وروح القرآن تتطلب من الفكر أن يكون واضحا وهادفا وإيجابيا، ولذا فإن القرآن حرص على توجيه الفكر حتى يكون فكراً إيجابياً بناءً مثمراً، وحتى لا تتبدد طاقاته في أمور لا تنفع ولا تثمر، ذلك أن مجالات التفكير يمكن أن تقع في قسمين:

الأول يسمى "الميتافيزيقا": وهي مشكلات ما بعد الطبيعة، أو الحقائق الغيبية وقد عالج القرآن الكريم هذه الأمور بطريقته الواضحة البسيطة التي تتلاءم مع العقل الإنساني السليم، وعرضها

بأدلتها العقلية البديهية المقنعة للعقل والقلب حتى يكون إيمانه بها عن اقتناع وليس إيمانا أعمي كما زعم "تنمان".

وحيث أن العقل في مجال ما بعد الطبيعة يعتريه القصور، حيث يعجز بطبيعته أن يصل إلى نتائج حاسمة فيها، كانت الحكمة في صرفه عـن البحث الدقيق في المسائل "المتيافيزيقية"، وهذا لا يعيبه ولا يقلل من شأنه وفي ذلك يقول ابن خلدون:" صرف الإنسان عن العلل الأولى والمهايـا الميتافيزيقية ليس بقادح في العقل ومداركه، بل العقل ميزان صـحيح، وأحكامـه يقينيه لا كذب فيها، غير أنك لا تطمع أن تزن به أمور التوحيد والآخرة وحقيقة النبوة وطبيعة الصفات الإلهية، وكل ما وراء طوره، فإن ذلك طمع في محال"[1].

وخيـر شـاهد علـى ذلـك تاريخ الفكر الإنساني على امتداد مـراحله، فلـم يـصل العقل في هذا المجال إلى حقائق أكيدة سلم بها الجمـيع ووثقـوا فيها، وكل ما أنتجه لا يعدو أن يكون مذاهب وآراء متضاربة تورث حيرة وضلالا، فلا غرو إذن أن يكون خوض العقل في هـذا المجـال – بدون استرشاد بالوحي ودون أن يعرف له حدوداً – تـبديداً لطاقـات وجهـود من الإلزام توفيرها لشئ آخر حيوي وهام بالنسبة للإنسان[2].

<u>القسم الثاني هو "الفيزيقا":</u> أو الكون وما فيه من مخلوقات وظواهر وقد حث القرآن في كثير من آياته الإنسان إلى النظر والتأمل

---

(١) انظـر: المقدمة، لابن خلدون، ٣/١٠٣٧، تحقيق د./ على عبدالواحد وافي، ط: لجنة البيان العربي ١٩٦٠م.

(٢) كتابنا: الفلسفة الإسلامية بين الأصالة والتقليد، ص٤٣ – ٤٥.

والتفكـر في هذا المجال لأنه المجال الذي يستطيع العقل فيه أن ينتج وأن يثمـر وأن يحقـق الـتطور والتقدم، ولا شك أن كل ما تتمتع به البشرية اليوم من وسائل الرفاهية والراحة إنما هو ثمرة لتفكير العقل في الكون وظواهره.

وإذا كـان القـرآن الكـريم قد صرف عن البحث في الماهيات الأولى، فليس في ذلك تضييق على العقل البشري أو حجر عليه، وإنما هو حسن توجيه للفكر وطاقاته إلى اكتشاف خصائص الظواهر الكونية وحسن استغلالها لتحسين واقع الإنسان في هذه الحياة[1].

ويتجلـى القرآن بحق مطلقا للطاقات الفكرية من ملاحظة هذه الشواهد:

– ذلـك لأن العقـل فـي نظر القرآن الكريم، هو أهم الطاقات الإنـسانية كلها، فجميع أركان الإسلام مبنية على فهم العقل وقناعته، لقـد خاطب القرآن العقل ليدل على وجود الخالق، وحض الإنسان على التدبر في الكون عن طريق العقل، كي يشاهد مظاهر قدرة الله في هذا الترتيب البديع، والنظام الدقيق، والدقة المتناهية، وحثه على النظر في نفـسه، ولفـت العقـل إلى قياس البعث في الآخرة على الخلق الأول والنـشأة الأولـى، ليبرهن بالاستنتاج العقلي على صحة عقيدة البعث والجـزاء والجـزم بها، وأمره أن يتفكر في خلق السموات والأرض، وينظر آثار الأقوام السالفة، وأنكر على الذين لا يستعملون عقولهم في

---

(١) انظـر أصالة التفكير الفلسفي في الإسلام، د./ عبدالمقصود عبدالغني، ص١٩، ٢٠، ط: القاهـرة ١٩٨٥م، وأيضا: في الفلسفة الإسلامية والأخلاق د./ محمد كمال جعفر، ص١٠٧ط: دار الكتب الجامعية ١٩٦٨م، وأيضا: دراسات فلسفية وأخلاقية د.م محمد كمال جعفر، ص١٥٤، وما بعدها، ط: القاهرة.

الفهم والتفكير السليم، ورفض التقليد وعاب على المقلدين، قال تعالى:﴿ قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[1]، وقال:﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللّهُ مِن شَيْءٍ ﴾[2]، وقال:﴿ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ﴾[3]، وقال:﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ اخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الألْبَابِ﴾ [4]، وقال: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاء فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ....﴾ الآيات [5] إلى غير ذلك من الآيات التي تدعو إلى التفكر والنظر في الكون والله والإنسان، والتأمل في الخلق، والتدبر في الآفاق والأنفس بغية الوصول إلى معرفة الله تعالى والإيمان به إيمانا راسخاً قائما على اليقين.

وإذا كان القرآن الكريم قد فسح المجال أمام العقل وحثه على التفكر والتدبر والتأمل فإنه قد أنكر على المشركين تعطيلهم لملكة العقل واعتمادهم على التقليد الأعمي في مسائل العقيدة، وفي ذلك يقول الحق تبارك وتعالى:﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ﴾ [6].
بل إن القرآن ليرسم لهؤلاء الذي يعطلون منافذ التفكير والمعرفة في أنفسهم صورة قبيحة تنفر منها الفطر السليمة، إذ يجعلهم في مرتبة

---

(١) سورة يونس آية ١٠١.

(٢) سورة الأعراف آية ١٨٥.

(٣) سورة الحشر آية ٣.

(٤) سورة آل عمران آية ١٩٠.

(٥) سورة ق آية ٧.

(٦) سورة البقرة آية ١٧٠.

أحط من مرتبة البهائم والعجماوات، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَـئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾[1].

إن نظرة سريعة إلى الكلمات التي وردت في القرآن الكريم، مما له صلة وثيقة بالنشاط العقلي كألفاظ: الفكر، والفقه، واللب ، والتفكر، والتدبر، والعلم ، والذكر، والتذكر ، إن نظرة سريعة إلى مثل هذه الألفاظ والعبارات تدل دلالة قاطعة على عناية القرآن بتربية الإنسان من الوجهة العقلية في الدرجة الأولى، ولذلك سلك القرآن في إبطال بعض الآراء والمعتقدات مسلك الأدلة العقلية الحاسمة القريبة، ولم يكن اهتمامه بإبطال هذه الآراء والمعتقدات إلا ضنا بالعقل الإنساني أن يتجمد أو يصيبه الشلل[2].

فأي حكم من الأحكام لا يمكن أن يكون قويا إلا إذا كان مستنداً في المقام الأول إلى طبيعة المحكوم عليه، لهذا لا ينبغي لنا فيما يتعلق بموقف القرآن من الحرية الفكرية والنظر العقلي أن نترك العنان لبعض الميول والأهواء لكي تدلى برأيها في هذا الصدد دون علم وهدى ونص من القرآن ذاته المحكوم عليه بإعاقة النظر العقلي.

والقرآن الكريم بدعوته العقل الإنساني إلى النظر والتأمل إنما يفتح الباب بذلك أمام حرية الرأي والفكر بل العقيدة، كيف لا وقد نص

---

(١) سورة الأعراف آية ١٧٩.

(٢) انظر الفلسفة الإسلامية، د./ محمد كمال جعفر، ص٢٧ ، ٢٨ ط: القاهرة ١٩٧٦م، وأيضا: الفلسفة الإسلامية بين الأصالة والتقليد، ص٤٨.

علي أنه: ﴿ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ (١) ، فليس صحيحاً ما ذهب إليه نفر من المستشرقين – أمثال "تنمان" ومن سار على دربه – من أنه وضع حجراً علـى حرية الرأي والنظر أو أن به نزعة جبرية صارمة. إن القرآن ترك المرء ونفسه بعد أن حدد له معالم الطريق وبين له الغث من الثمين، والصالح من الطالح والصواب من الخطأ، .... لأن هذا في عرف القرآن شروطاً رئيسيه للمساءلة في الآخرة.

بـل إن القرآن الكريم أثار أمام العقل الإنساني مسائل فلسفية وعلمـية وأخلاقـية كثيرة ومتنوعة، ودفع العقل السليم إلى أن يتخذ إزاءهـا مواقف معينة تنطلق وتنسجم مع نظرته الكلية العامة الشاملة للوجود، من ذلك الإشارة إلى أصل الحياة والوجود. والنشأتين، الأولى والآخرة، واتخاذ النشأة الأولى دليلا لإثبات النشأة الآخرة ....".

والملاحـظ على جملة الآيات التي تتضمن الإشارة إلى الخلق الأول أنهـا تلتـزم طريقة، التقرير البديهي التي لا يرى العقل بداً من التسليم لصحتها وصدقها (٢).

أبعـد أن دعا القرآن الكريم العقل الإنساني إلى هذا كله، وعلم العقـل الإنساني هذا كله، ودفع العقل الإنساني إلى هذا كله، نطالع من يتهم القرآن -أمثال "تنمان" وغيره- بأنه لم يشجع العلم والعلماء ولم يـرفع من شأنهم وأنه كان عقبة في سبيل النظر العقلى الحر" إن مثل

---

(١) سورة البقرة آية ٢٥٦.

(٢) انظر : مع مسيرة الفكر الإسلامي في العصر الوسيط، د./ محمد رشاد دهمس، ٤٦، ط: القاهـرة، ١٩٨٥م، وأيـضا: تـاريخ الفلسفة الإسلامية في المشرق، د./فيصل بدير عون، ص٩٥ ط: القاهرة.

هــؤلاء كمثل من يقول إن الشمس تفيض بروده وظلمه"[1] ونعتقد أن النــصوص التــي أشــرنا إلــى بعض منها كفيلة بإفحام أفئدة هؤلاء المستشرقين.

ولــو أردنــا استقصاء المواضع التي حث القرآن الكريم فيها على النظر والتفكر والاعتبار والتأمل لطال بنا الحديث إلى مدى يضيق عنه المقام، ولكن يمكن أن نقرر أن القرآن الكريم ملئ بما يثير الانتباه وينــشط العقــل، ويدعو إلى التفكر والنقد والتحليل، وينفر من التقليد الأعمــى، وتعطــيل الملكــات التي منحها الله للإنسان، وإن كتابا بهذه المثابة لا يمكن القول بأنه معوق للفكر مقيد للعقل، أو أنه وقف عقبة بين المسلمين والتقدم في الفلسفة كما زعم بعض المستشرقين.

ولعلنا نستطيع أن نقول مع أحد الباحثين "إنه ما من دين احتفل بــالإدراك البشري، وأيقظه من غفوته، ودعاه إلى نبذ التقليد، ووجهه إلــى النظــر في أمر العقيدة، وإلى التفكر في آيات الله في الآفاق وفي الأنفس، ما من دين فعل ذلك كما فعل الإسلام" [2].

وقــصارى القــول: إن كــتابا بهذه المثابة لا يمكن أن يوصف ديــنه بأنه معوق للفكر، أو مقيد لحريته، أو عامل من عوامل إجداب العقلية العربية الإسلامية، كما يدعي بهتانا وزوراً بعض المستشرقين أمــثال "تنمان" – ومن على شاكلته –، ألا فليقرأ "تنمان" القرآن الكريم وليمــسك بــيده قلما وقرطاساً، ثم ليحصى عدد مرات ذكر "العقل" في القــرآن ، مــصحوبا تارات بالثناء والتقدير، ومأموراً بالبحث والنظر

---

(١) التفكير الفلسفي الإسلامي، د./ النشار، ص٣٣٩ط: الخانجي ١٩٧٦م.

(٢) انظــر: خــصائص التصور الإسلامي، الشيخ محمد قطب ، ص٦٥، ط: دار الشروق بيروت، وأيضا: أصالة التفكير الفلسفي في الإسلام ، ص٨١.

والتفكر ثم ليقل لنا ماذا يستفاد من ذكر العقل مصحوباً بالشكر ومأموراً بالـــبحث والنظر والتفكير مرات ومرات؟ استفاد منه أن القرآن يعوق النظـــر العقلـــي الحر؟ أم استفاد منه شئ آخر، إن الجوانب على ذلك رهن بمقدار ذكاء "تنـمان" وصحبه الأشرار"[1].

إن القـــرآن الكـــريم علـــى حـــد تعبير أحد المفكرين من أبناء الإســـلام:" لم يكن لدى أصحابه كتاب مواعظ أخلاقية فقط، أو تاريخيا أنـــزل للعبـــرة عن قرون ماضية، وإنما هو كتاب ميتافيزيقي وإنساني وأخلاقي وعملى وضع الخطوط الرئيسية للوجود كله فهو كتاب الكون مـــنذ نـــشأته إلى فنائه ومن الخطأ البالغ أن يقال أن القرآن خلو من النظريات الكونية والفلسفية[2].

ب- أمـــا عن زعمه بأن حزب أهل السنة كان عقبة في طريق التفكير العقلي الحر لكونه متمسك بالنصوص، نقول: إن هذا زعم باطل وافتـــراء على حزب أهل السنة، حيث إنه لم يكن أبداً حجر عثرة أمام التفكيـــر العقلـــي، وذلـــك لأنـــه فتح باب المناقشة والحوار بينه وبين الأحزاب الأخرى، وقد برز من هذا الحزب كثير من المفكرين والفلاسفة أمثال الإمام الغزالي والجويني، والبغدادي، والرازي، وغيرهم، هذا من جهـــة، ومـــن جهة أخرى أن النصوص التي استمسك بها حزب أهل السنة فيها تقدير للعقل وثناء عليه وأمر له بالبحث والنظر والتفكر في ملكـــوت الـــسموات والأرض، وحث على مواصلة البحث للوصول إلى السنن والقوانين التي أودعها الله في هذا الكون، فمن أجل ما اشتملت

---

(١) كتابنا: الفلسفة الإسلامية بين الأصالة والتقليد، ص٥١ – ٥٢.

(٢) انظـــر: نشأة التفكير الفلسفي في الإسلام، د./ النشار، ١/٤/ط ٤ دار المعارف القاهرة، وأيضا: تاريخ الفلسفة الإسلامية في المشرق، د./ عون، ص٩٦.

علـيه تلك النصوص من تقدير للعقل والفكر، رأي أهل السنة الحرص علـى التمـسك بهـا، وقد ذكرنا بعضا من النصوص التي تقدر العقل والفكر في ثنايا حديثا عن موقف القرآن من التفكير العقلي الحر[1].

ج- وأمـا مـا ذهب إليه "**تـنـمان**" من أن المسلمين قد جعلوا لأرسطو سلطانا مستبداً على عقولهم ، وأنهم لم يستطيعوا فهم ما في مذهـبه مـن صعوبات ، حيث أنهم كثيراً ما أضعفوا مذهبه وشوهوه. نقول: إن هذه مغالطات وافتراءات على فلاسفة الإسلام، فهم لم يجعلوا هـذا الـسلطان المطلق على عقولهم، وإذا كانوا قد مالوا إلى فلسفته وأخذوا من أفكاره أكثر من غيره، فذلك يرجع إلى أن اتجاهه التجريبي كان أقرب إلى طبيعتهم .

ومـع هذا فإنهم قد رفضوا كثيراً من أفكار "**أرسطو**" وفضلوا عليها أفكار "**أفلاطون**".

ومعنـى هـذا أن فلاسـفة الإسـلام قـد أفادوا من أفلاطون والأفلاطونـية المحدثة كما أفادوا من أرسطو، فقد أخذوا عن أرسطو الاتجـاه الواقعـي، وأخذوا من أفلاطون والأفلاطونية المحدثة الاتجاه الروحـي المثالي[2]. وهذا دليل على أنهم لم يتابعوا أرسطوا ولا غيره مـتابعة عمـياء، فهم ليسو بغباوات يرددو ما تلقونه عن هذا أو ذاك، ولم يكونوا مجرد نقله أو شراح أو معلقين وإنما اثبتوا في هذا المجال ذاتهم، وتركوا بصماتهم على إنتاجهم، واتخذوا موقفاً نقديا متميزاً إزاء الآراء والمـذاهب اليونانية، بل إنهم نقدوا المنطق الأرسطى، وكشفوا

---

(١) كتابنا: الفلسفة الإسلامية قضايا ومناقشات، ص٢١.

(٢) أصالة التفكير الفلسفي في الإسلام، ص٢١.

عـــيوبة، رغم سيطرة هذا المنطق على المجال الثقافي فترة طويلة من الزمن، واتبعوا منهجاً آخر يخالف منطق القياس، حيث وضعوا بالفعل المنطق الاستقرائي كاملا، وليس هذا قول الباحثين العرب وحسب، بل هـــو كـــذلك ما نبه إليه العالم التجريبي "روجوبيكون"[1]، ولاشك أن وضـــع هذا المنهج التجريبي أو الاستقرائي، إنما كان بناء على إدراك تام لعدم ملاءمة المنهج اليوناني لمتطلبات الحضارة الإسلامية.

ومـــن جهـــة أخرى، فإن فلاسفة المسلمين لم يضعفوا مذهب أرســـطو ولـــم يشوهوه، بل أنهم شرحوه وأضافوا إليه إضافات هامة، ومـــن المكابرة الممقوتة أن يقال أن الشروح التي قام بها "ابـن رشـد" علـــى فلسفة أرسطو عمل لا قيمة له، وهل من المنطق أن تكون هذه الشروح التي استغرقت عدة مجلدات لا أهمية لها أو لا تمثل أية إضافة إلى ما قاله أرسطو ؟.

ولـــم يقتصر عمل فلاسفة الإسلام على مجرد الشرح والتعليق، بل إنه عملوا على تلافي ما في مذهب أرسطو من النقص باختيار آراء مـــن مـــذاهب أخرى وبالتخريج والتأويل، وبهذا استطاعوا أن يؤلفوا نـــسقا فلسفيا متكاملا قائما على أساس من مذهب ، أرسطو، ومتضمنا عناصر أخرى يونانية، بل وعناصر أخرى شرقية[2].

<u>**وقـصارى القـول**</u> : إن فلاســـفة الإسلام كانوا لا يتقيدون بفكر فيلـــسوف معـــين، بـــل كثيراً ما يأخذون بعض جوانب فلسفة أرسطو

---

(١) في الفلسفة الإسلامية، د./ محمد كمال جعفر، ص ٤٩، ط.: القاهرة ١٩٧٦م.

(٢) أصـــالة التفكير الفلسفي، ص٢١، وأيضا: تاريخ الفلسفة الإسلامية في المشرق، د./ عون، ص٢٤.

ويرفضون البعض الآخر، وكانوا أيضا يقومون بأخذ بعض جوانب فلسفة أفلاطون تاركين البعض الآخر، بمعني أن أثر أرسطو كان واضحا أشد ما يكون الوضوح في المسائل المادية التجريبية، بينما كان أثر أفلاطون واضحا أشد ما يكون الوضوح في الجوانب الروحية.

وهذا يعني أن فلاسفة الإسلام لم يتابعوا هذا أو ذاك متابعة عمياء، وإنما أخذوا من هذين الفيلسوفين الآراء والاتجاهات التي تناسب عقيدتهم وآراءهم، وهذا إن دل على شئ فإنما يدل على أن لفلاسفة الإسلام موقفهم المستقل وشخصيتهم المميزة وأن لهم منهجهم الخاص في معالجة المشاكل.

د-أما عن قوله: إن العرب فيهم ميل إلى التأثر بالأوهام وهذا ما عاق تقدمهم الفكري، نقول هذه دعوى بلا دليل، وإن صحت فهي حكم بالجزء على الكل، فليس كل العرب عندهم ميل إلى التأثر بالأوهام،وأي علاقة بين التأثر بالأوهام والتكفير العقلي[1]. ثم ألم يبرز من بين هؤلاء فلاسفة وعلماء ومفكرين في جميع المجالات والتخصصات البشرية، أمثال "الكندى والفارابي وابن سينا وأبو البركات البغدادي والغزالي وابن باجة، وابن طفيل وابن رشد، وغيرهم من أعلام الكلام والتصوف والأخلاق ، فلماذا انتجوا في هذه الفنون إن كان عندهم ميل إلى التأثر بالأوهام؟

ثانيا: مناقشة المستشرق كوزان فيما ذهب إليه: -

زعم "كوزان" أن المسيحية هي آخر ما ظهر على الأرض من الأديان، وهي أيضا أكملها، وهي تمام كل دين سابق، وغاية الثمرات

---

(١) محاضرات في الفلسفة العامة، د./ على حسن محمد، ص٤٦ ط: القاهرة.

التي تمخضت عنها الحركات الدينية في العالم وبها ختمت، وهي التي نسخت جميع الأديان.. كذلك كان الدين المسيحي إنسانيا واجتماعيا إلى أقصى الغايات ... إلخ [1].

لاشــك إنــنا نلحظ مغالطات كثيرة فيما ساقه "كوزان"، تحاول إضفاء هالة كبيرة على المسيحية وتسخر من الأديان الأخرى وخاصة الإسلام، كما نلحظ أنه صاغ مزاعمه في أسلوب ينأى عن طبيعة البحث الفلسفي الحر الذي لا يعترف بالأحكام الذاتية الشخصية.

"فكوزان" قد وضع في حسبانه منذ البداية أمراً نسبياً ومبدأ لم يحد عنه، وهو قوله: عن المسيحية هي آخر ما ظهر على الأرض ... إلــخ، فحيــنما يــدرس الفلسفة الإسلامية وهو مؤمن بالمسيحية هذا الإيمــان، واضــحا نصب عينيه أنه لا دين بعدها وأنها أفضل من كل العقائد، لا نتوقع منه أن يكون رحيما في حكمه على الإسلام وفلاسفته لأنـــه يضع التعصب الديني حاجزاً حال بينه وبين النظرة الموضوعية في الحكم على الفلسفة الإسلامية، فمن ينكر الدين الإسلامي أنى له أن يقــول بفلسفة إسلامية؟، ومن يرى أن المسيحية هي الحق وما عداها باطل كيف نلتمس منه البحث عن الحقيقة في الفلسفة الإسلامية؟ ومن يــرى أن المــسيحية هي وحدها التي تصنع الرجال، كيف له أن يقف وقفة موضوعية أمام رجال الإسلام ابتداء من معلمهم الأول "رسول الله صلى الله عليه وسلم" فالصحابة فالتابعين... إلخ؟؟.

---

(١) تمهيد لتاريخ الفلسفة، ص٨ن وأيضا ص   من هذا البحث.

وإذا كان لنا أن نعقب على رأي "كوزان" وهو بصدد حديثه عن المسيحية لقلنا: هل أحكامه هذه صادرة عنه كرجل فلسفة أم كرجل دين؟

أما إذا كانت صادرة عنه باعتباره فيسلوفا فقد أساء إلى نفسه قبل أن يسئ إلى الفلسفة التي لا تعرف الأحكام الذاتية الشخصية والتى لا تقرر رأيا أو قولا باعتباره آخر الأقوال أو الآراء [1].

أما الزعم بأن الديانة المسيحية وحدها هي التي صنعت المجتمعات وصنعت الرجال، فأمر لا نقبله هكذا على علاته، لقد كان للمسيحية بلا شك موقفها من الإنسان، حيث اهتمت بالناحية الداخلية قبل الناحية الخارجية، اهتمت بالمحبة والإخلاص والطهارة لأنها رأت أن "اليهودية" تهتم بالخارج فحسب ، فلما جاء الإسلام جب اليهودية والمسيحية حيث جمع بين الاهتمام بالداخل والخارج في آن واحد.

لقد صنعت المسيحية رجالا ما في ذلك شك، لكن أن يقال إن الديانات الأخرى لم تصنع رجالا، بل وأدت إلى الانحلال والاستبداد فأمر عجيب. ذلك أن قضاء الدين الإسلامي على بعض العادات والتقاليد اللاإنسانية والتي كانت سائدة في المجتمع الجاهلي يشهد للإسلام بتحضره وبمحاولة انتشال الفرد من مرحلة الحيوانية إلى مرحلة الإنسانية، لقد فشل الدين اليهودي والمسيحي في السيطرة على العرب بينما نجح الدين الإسلامي في ذلك كل النجاح.

ثم أين هي الحكومات الديمقراطية الآن من تلك التي شاهدناها في فجر الإسلام؟ ومن ذا ينكر فضل الإسلام في صنع رجال كانوا

---

(١) تاريخ الفلسفة الإسلامية في المشرق، ص٧٥.

جبابــرة فــي جاهليتهم، فأضحوا أتق الناس وأروعهم وأعدلهم، أمثال الفــاروق "عمر ابــن الخطاب" ، و"خالد بن الوليد وعمرو ابن العاص" وغيرهم.

وكــيف يوصــف العــر بالجهــل مع أنه مجرد أن أتيحت لهم الظــروف بــدأ حكامهم في تكليف المترجمين بنقل التراث الأجنبي إلى اللغــة العــربية حتى يقف المثقف العربي على آخر التطورات العلمية والدراســات الإنــسانية؟ لقد عرف المسلمون "التفرغ العلمي" والمنح العلمية" قبل معرفتنا لها في العصر الحديث، لأن الحكام المسلمين كانوا يجلــبون العلمــاء ويغدقون عليهم المال والطعام لا لشيء إلا لإنتاجهم العلمــي، ويــشهد الــتاريخ أن أعظــم الأطباء والكيميائيين والفلكيين وغيرهم كانوا من المسلمين [1].

لقد ظهر التفكير الفلسفي في الإسلام مقترنا بالإسلام نفسه في المقــام الأول ذلك لأن القرآن الكريم جاء بمادة فلسفية ضخمة منها ما هو خاص بالإنسان وبعلاقته بنفسه وبأسرته وبمجتمعه، ومنها ما هو خــاص بعلاقــة الجــوار، ومنها ما هو خاص بحالات الحرب والسلم، ومــنها ما يتعلق بالعالم ككل مع حث على النظر في موجوداته لإدراك خالقهــا وبارئهــا، ومــنها ما هو خاص بالألوهية نفسها وعلاقة الله بالعالم... إلخ أي أن الإسلام جاء بوجهة نظر كبرى متسقة ومنسجمة فــيما يتعلق بالله والإنسان والعالم، ومن شأن هذه النظرة القرآنية أن تحــرك العقــل الإنــساني لـــ "تعقل" هذه الحلول التي قدمها الدين الإسلامي.

---

(١) السابق، ص٧٦ وما بعدها.

وننتهي من ذلك كله إلى القول بأن التعصب الديني قد استولى علـــى بعــض المستـــشرقين فحال بينهم وبين النظرة الموضوعية في الحكــم على الفلسفة الإسلامية وأوقعهم في أخطاء جسيمة، وإذا كان التعصب الديني الذي انتهينا من الحديث عنه والرد على أنصاره قد دفع أصـــحابه إلى تشوبيه الفلسفة الإسلامية وتجريدها من عنصر الأصالة والابتكار، فإن التعصب الجنسي لا يقل سوءاً عنه كما سيتضح لنا بعد ذلك [1].

ثانيا: المتعصبون لجنسهم :-

وبعـــد أن اتـــضح لنا أن التعصب الديني قد حمل أتباعه على تـــشويه صـــورة الفلـــسفة الإســـلامية، وتجريدها من عنصر الابتكار والأصالة، ننتقل إلى الحديث عن التعصب الجنسي وهو في الحقيقة لا يقـــل ســـوءاً عنه، ذلك أن أصحابه حاولوا أن يضفوا على هذا الزعم طابعا علميا، وأن يفسروا عدم إبداع المسلمين في مجال التفكير العقلي تفسيراً يرجع إلى قصور فسيولوجي أو مادي في الجنس السامي.

ونـــزعة الاســـتعلاء أو التعـــصب الجنسي قد ظهرت بصورة واضـــحة عند بعض المستشرقين أمثال "رينان" وجوتييه" وديبور. فقد حـــاول رينان " تقسيم الناس إلى قسمين: ساميين وآريين لكي يوجد لمـــا ذهـــب إلـــيه من افتراء سنداً علمياً، القسم السامي يتمثل خير ما يتمثل في الشرق الأوسط وفي الجنس العربي، والقسم الآري، ويتمثل خير ما يتمثل في أوروبا ، وخصوصا شمالها.

---

(١) الفلسفة الإسلامية بين الأصالة والتقليد، ص٥٩ – ٦٠.

ثم أخذ الغربيون يتخيلون خصائص ومميزات لكل نوع، وانتهى بهم الوهم إلى أن الجنس الآري: مبتدع مبتكر مخترع، وأن الجنس السامي(*). تابع ملقد ، هو بطبيعته كذلك وهو كذلك الآن، وسيكون كذلك ابداً،والنتيجة لهذه المقدمات الزائفة: أنه لم يكن للشرق فلسفة في الماضي، لأن الفلسفة: ابتداع واختراع وتنسيق، وذلك من خصائص الجنس الآري، وليس للشرق فلسفة في الحاضر، ولن يكون للشرق فلسفة في المستقبل (٢).

وتبني "وينان" هذه الفكرة في أواخر القرن التاسع عشر، وتزعم الدعوة لها، وكان "وينان" ذا شخصية جافة، وأسلوب قوى، وأطلاع واسع، وكان لكل ذلك أثر بالغ في نشر الفكرة ورواجها، فهو يصرح بأنه: "أول من قرر أن الجنس السامي دون الجنس الآرى، وكان لرأيه وزنه في فريق من معاصره، وصداه لدى بعض اتباعه وتلاميذه، ذلك لأنه كان أستاذ اللغات السامية غير منازع، وأعرف الناس بالساميين (٣).

(*) الجنس السامي: نسبة إلى سام بن نوح، على ما جاء في التوراة من أنه كان لنوح أبناء ثلاثة: سام وحام ويافث ، فسام أبو الإسرائيليين وإخوانهم، وحام أبو الزنوج، ويافث أبو بقية البشر. أما الآرى فمنسوب إلى أريا اسم شعب كان مهده النجد الفارسي من بلاد الأفغان وما إليها ، ثم انحدر فيما حوالى عام ٢٠٠٠ قبل ميلاد المسيح إلى الشمال الغربي من الهند، ومعه دين جديد من أديان الشرك هو دين الفيديين.

(٢) التفكير الفلسفي في الإسلام، د./ عبدالحليم محمود، ص١٨٧.

(٣) تمهيد في تاريخ الفلسفة، الشيخ مصطفى عبدالرازق، ص١٠، وأيضا: في الفلسفة الإسلامية، ١/١٦.

وعنده أن العرب – أو الجنس السامي – قد فطروا على إدراك المفـــردات وحـــدها، فـــلا قـــبل لهم باستخلاص قضايا وقوانين، ولا بالوصـــول إلى فروض ونظريات، وهو يرى أنه من العبث أن نلتمس عـــندهم آراء علمـــية، أو دروسا فلسفية، خصوصاً وقد ضيق الإسلام آفـــاقهم وانتـــزع مـــن بينهم كل بحث نظرى، وأضحى الطفل المسلم محتقـــراً العلم والفلسفة، أما ما يسمونه فلسفة عربية، فليس إلا مجرد محاكـــاة وتقلـــيد لأرسطو، وضرب من التكرار لآراء وأفكار يونـانية، كتبت باللغة العربية [1].

هكذا يضع "ريـنـان" منذ بداية الأمر حكما لا يحيد عنه، وهو أن الجنس السامي بعيد كل البعد عن الفلسفة، ولا قبل له بها وليست من شـــأنه فهو يقول:" إننى لم استطع أن أغير وجهة نظري حيال أصول الفلسفة العربية على العموم وطابعها، فتراني أصر على اعتقادي، ... أنه لم يسيطر على إيجاد هذه الفلسفة أية فرقة كبيرة من فرق العقائد، وذلـــك أن العرب لم يصنعوا غير انتحال مجموع الموسوعة اليونانية كما عول عليه العالم بأسره حوالي القرن الثامن الميلادي[2].

ثـــم يقول في موضع آخر: وليس العرق السامي هو ما ينبغي لنا أن نطالبه بدروس في الفلسفة، .... ولم تكن الفلسفة لدى الساميين

---

(١) فـــي الفلـــسفة الإسلامية منهج وتطبيقه، د./ إبراهيم مذكور، ١/١٦، ط٣، دار المعارف ١٩٨٣م، وأيضا : تمهيد لتاريخ الفلسفة ص١١، وقارن: تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام، د./ أبو ريان، ص١٠.

(٢) ابن رشد والرشدية، رينان، ترجمة عادل زعيتر، ص١٠ اط، القاهرة دار إحياء الكتب العربية ١٩٥٧م وأيضا: المدخل لدراسة الفلسفة الإسلامية، ليون جوتييه، ترجمة د./ محمد يوسف موسى، ص٥٠، ط: دار الكتب الأهلية ١٩٤٥م.

غير استعارة خارجية صرفة خالية من كبير خصب غير إقتداء بالفلسفة اليونانية[1]، ثم يستطرد قائلا: ومن الخطأ وسوء الدلالة في الألفاظ على المعاني أن نطلق على فلسفة اليونان المنقولة إلى العربية لفظ "فلسفة عربية"، مع أنه لم يظهر لهذه الفلسفة في شبه جزيرة العرب مبادئ ولا مقدمات، فكل ما في الأمر أنها مكتوبة بلغة عربية، ثم لم تزدهر إلا في النواحي النائية عن بلاد العرب مثل أسبانيا ومراكش وسمرقند، وكان معظم أهلها من غير الساميين [2].

وعلى أية حال: فإن "رينان" في تحليله للعقلية السامية يرد كل قصور بها إلى استعداد فطري طبيعي لإنتاج أمر واحد في دائرة واحدة، وهذا الشئ المنتج في رأيه هو التوحيد، وإذا ما نظرنا نظرة تاريخية لوجدنا أن العقلية السامية لم تستطع – في رأي رينان – أن تنتج غير هذه الفكرة وحدها، وأن هذه الفكرة لم تنشأ لديها تبعا لتفكير طويل واستدلال منظم، وإنما انبعثت فيها نتيجة لعوامل واستعداد في صميم الجنس نفسه، وهذه الاستعدادات الجنسية هي في نهاية الأمر غريزة خاصة في الجنس هي غريزة التوحيد، وقد تجلت هذه الغريزة في باطن هذا الجنس تجليا فطرياً، أي انقدحت في أعماقه على صورة إلهام فكرى ساحق طاغ، غير أن الغريزة الباطنية ليست الطابع الأساسي للعقلية السامية، بل هي تعود إلى طابع أعظم يبدو على أوضح شكل في العقل، ونستطيع بواسطته أن نفسر تماما قصور

---

(١) ابن رشد والرشدية، ص١٥.

(٢) تمهيد لتاريخ الفلسفة ص١١ان وقارون أيضا: محاضرات في الفلسفة الإسلامية، د./ يحيى هريدي ، ص١٤، ١٥، ط: النهضة المصرية.

العقليــة الســامية، أما هذا الطابع فهو عدم التعقيد والتشابك الفكري، والإحساس المطلق العام بالوحدة[1].

ومعنـــى هــذا أن خــواص النفس السامية تتجلى في انسياق فطرتها إلى التوحيد من جهة الدين ، وإلى البساطة في اللغة والصناعة والفــن والمدنــية، أمــا النفس الآرية فيميزها ميل فطرى إلى التعدد وانسجام التأليف"[2].

وهكذا نرى أن هذا المستشرق يعلن قصور الفلاسفة المسلمين عــن الإبداع الفلسفي في ضوء تحليل خاطئ للعقلية السامية، ويرد كل قــصور فـــي العقلية السامية إلى استعداد فطرى طبيعي، وبذلك أدخل "رينان" في المباحث المتعلقة بتاريخ الفلسفة عند العرب دعوى الطبيعة السامية وجعلها أساساً للحكم على تلك الفلسفة.

والحـــق أن هذه التفرقة العنصرية لا يقرها عقل ولا منطق، إذ أن العقل واحد في كل الأجناس، وهو أعدل الأشياء قسمة بين الناس، فـــلا يمكن إذن أن نستخلص صفات أي شعب العقلية ومميزاته الفكرية مـــن الجنس الذي ينتمي إليه، لأن الصفات أو الخصائص الفطرية في العقل البشري واحدة، لا أختلاف فيها بين الشعوب والأجناس، وهذا لا يمنع من أن يكون هناك اختلاف في الصفات المكتسبة.

فتقسيم الناس إلى ساميين وآريين، إذا كان له دلالات تاريخية لغــوية، فلا ينبغي أن يكون له دلالات فكرية، ويكفي أن نقول هنا أن

---

(١) نــشأة الفكــر الفلــسفي في الإسلام، د./ على سامي النشار، ٤٩/١، ط٨، دار المعارف المصرية.

(٢) تمهيد في تاريخ الفلسفة الإسلامية، ص١١.

"سام" كان أخا "لحام" ،"ويافث" وأنه مهما تباينت الآراء بشأن الجنس الآراى فإنها سوف تلتقي عند نقطة واحدة في نهاية المطاف، وهي أن الكل أخوة لأنهم أبناء آدم عليه السلام، أي أن أصل الأجناس واحد.

بل مما يلفت نظر الباحث المنصف ويثير استغرابه في هذه القضية، أن الهجوم على السامية هنا انصب على العرب والمسلمين فحسب، فكأن العرب هم وحدهم الذي ينتمون إلى السامية، مع أن الواقع والتاريخ يؤكدان أن اليهود يشتركون مع العرب في ساميتهم، ومع هذا لم يتعرض اليهود للهجوم من جانب أحد المستشرقين الغرب، فهل سامية العرب غير سامية اليهود ؟ أم نظراً لأن اليهود أصحاب التوراة، مختلفون عن العرب الذين أضحوا مسلمين؟ ولهذا وجب مهاجمة كتابهم المقدس – وهو القرآن الكريم– في شخصهم. وهنا يكون الهجوم على السامية غير موضوعي وغير نزيه، لأنه يصبح بعيدا عن البحث العلمي الذي ينبغي أن يتسم بالموضوعية.

فالباحث يجب عليه أن يكون منصفا في دراسته، بعيدا عن الهوى والميول والرغبات والأهواء والأحكام المسبقة، وأن يعتمد على العقل، وهو يخوض في هذا البحث أو ذاك، كي تأتي نظرته عميقه وصائبة، ولكي يكون حكمه واقعيا وصادقا. أما أن يضع المرء منذ بداية الطريق مجموعة من المصادرات والمسلمات ويخوض بحر الفلسفة، لكي يثبت هذه القضايا الإيمانية التي سبق أن سلم بصدقها، فأمر لا يبرره عقل ولا يقبله منطق، ويصعب قبوله. لأن الباحث حينئذ، سوف يرفع من طريقه كل ما يهدم إيمانه المسبق لأن من شأن هذا الإيمان أن يصبغ حكمه بصبغة خاصة، فمن يؤمن بأن المسيحية أو اليهودية آخر الأديان، فلن يرضى بغيرها دينا مهما كانت الحجج

والأســـانيد، ومن يجعل الفلسفة اليونانية معيار كل فلسفة فلن يرضى بغيرها فلسفة[1].

وقــد تابــع "ريـنان" في التمييز بيي الجنس السامي والجنس الآري على أساس فسيولوجي المستشرق "جوتـيـيه"، فقد ذكر أنه "في كـــل مظاهر النشاط الإنساني من أدناها إلى أعلاها، تتجلى في الجنس الآرى مـــن ناحـــية، والجـــنس السامي نزعات أصلية متقابلة، العقل السامي يجمع بين الأشياء، متناسبة وغير متناسبة، مع تركها منفصلة بـــلا رباط يصلها، متنقلا بينها بوثبات مباغتة لا تدرج فيها. أما العقل الآرى فعلى عكس ذلك يؤلف بين الأشياء بوسائط تدريجية لا يتخطى، واحـــداً منها إلى غيره إلا على سلم متداني الدرج لا يكاد يحس التنقل فيه فهو عقل جمع ومزج"[2].

وقد حاول المستشرق الفرنسي "جوتـيـيه" تفسير قصور العقل العربـــي عن الإبداع الفلسفي بفكرة جديدة وتلك الفكرة هي: أن عقلية الشعب العربي إنما تعود إلى ظروف البيئة المتقلبة المتغيرة، تلك البيئة التـــي تنتقل من الهدوء إلى العاصفة، ... وتنتقل من الحرارة القاسية نهاراً إلى البرودة القاسية ليلا. كل هذا جعل من العقلية العربية عقلية صـــحراوية، تنتقل من الضد إلى الضد، ومن النقيض إلى النقيض، من الـــرحمة إلى القسوة،...إلخ ليس هناك وسائط يقف عندها هذا العقل،

---

(١) تاريخ الفلسفة الإسلامية في المشرق ، ص١٧، ١٨، وكتابنا: الفلسفة الإسلامية بين الأصالة والتقليد ص٦٧.

(٢) تمهـــيد لـــتاريخ الفلسفة الإسلامية، ص٢٢، وقارن: في الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيقه، ص١٦٨، ط٣، دار المعارف ١٩٨٣م. وأيضا : تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام، د./ أبو ريان، ص١١.

وذلك هو الطابع الأساسي للحضارة العربية السامية: الانتقال من طرف إلى طرف، وتقابل الأضداد في نظر العربي. ولم يحاول العربي على الإطلاق أن يبحث المسائل بتلك النظرة الموفقة المقارنة فيضعها في وحدة متناسقة، لم يجمع، ولم يقارن ، ولم يركب ، بل الضد عنده مقابل الضد. بينما استطاعت العقلية الآرية أن تجمع، وأن تقارن، وأن تركب، وأن تصل بين الأضداد، وأن تضع هذا كله في وحدة متناسقة، فالفكر السامي فكر مفرق، والفكر الآرى فكر منسق[١].

وحاول "جوتييه" أن يثبت فكرته بشواهد استمدها من نظرة الفلسفة الإسلامية المشائية إلى بعض المشاكل، فالصلة بين الله والعالم عند الفلاسفة اليونانيين صلة متصلة، ثم أتي الإسلاميون بعد ذلك فأخذوا الفكرة اليونانية ووضعوا بين العالم والله، أو بين الخلق والخالق، وسائط متعددة، فظهرت مشكلة العقول العشرة، أما المسلمون فلم يفهموا إطلاقا فكرة عدم الخلاء هذه، بل تصوروا خلاءاً مطلقا أجوف فارغا بين العوالم المختلفة، وهاجم الفقهاء[٢]. وهم الممثلون للفكر الإسلامي الأصيل – فكرة العقول.

يخطئ "جوتييه" نفس الخطأ الذي وقع فيه "رينان" فيعتبر فلاسفة الإسلام ممثلين للجنس العربي فقط، ونحن نعلم أن الفارابي وابن سينا اكبر هؤلاء الفلاسفة أريبان.

ثم إن "جوتييه" يقصر الفلسفة الإسلامية على هذا النوع من الفلسفة التقليدية وهو خطأ في حين نجده يعترف بعبقرية المسلمين

---

(١) نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، د./ النشار، ١/٥١، ط٨، دار المعارف.

(٢) نفس المصدر، ص٥١.

وأصالتهم في علم الكلام. فهو يقول: إن ذاتية العرب وعبقريتهم الحقيقية إنما ينبغي أن تلتمس لدى الطوائف الدينية الإسلامية [١]. وهو بذلك يعني الفرق الكلامية.

وإذا استقرينا حوادث التاريخ تبين لنا بوضوح أن تلك الانتقادات المختلفة التي وجهها هؤلاء المستشرقون إلى الفلسفة الإسلامية أو إلى الفكر الإسلامي عامة، لا تقوم على أساس علمي. فهي لا تخلو من تشويش الخيال، ولا تخلو أيضا من اضطراب في الفكر وتناقض واضح، وأنها قد صدرت عن تعصب أعمى لا يقره عقل ولا يقبله منطق. ولعل هذا كله يسمح لنا بالقول: أن فكرة "رينان" واتباعه ليست إلا مجرد دعوى أرسلت على علاتها دون سند واضح ولا دعامة قوية، ومثل هذه الدعاوي يمقتها العلم وينكرها ولا يحترمها[٢].

إن هذه الآراء كانت متسرعة وغير دقيقة ولم تقم على دراسة شاملة للفلسفة الإسلامية، ولذا فإنها كانت محلا للاعتراض عليها والطعن فيها، إذ لا يمكننا أن نسلم بأن عدم الإبداع الفكرى لدى المسلمين في مجال الفلسفة مرجعه إلى سبب مادي أو فسيولوجي في الجنس العربي، أو في الجنس السامي كله، ولا نستطيع أن نقبل عزو أي قصور فكري إلى طبيعة أي جنس من الأجناس، فقد ورد في دائرة المعارف البريطانية تحت كلمة "عرب" ما يؤكد ذلك ويفند مزاعم [رينان] ومن ذهب مذهبه، فقد ورد فيها: "أنه ليس من صواب الرأي ما فعله "رينان" ولسن بإضافتهما صفات خاصة إلى الجنس السامي هي

---

(١) السابق، ص٥٢، وقارن مدكور، ١٨/١ ط٣، - دار المعارف.

(٢) كتابنا: الفلسفة الإسلامية بين الأصالة والتقليد، ص٧٠.

في الواقع ناشئة عن عوامل خارجية، فهي نتيجة البيئة التي عاشوا فيها والأحوال التي اكتنفتهم ، ولو أنهم عاشوا في بيئة أخرى وفي أحوال مغايرة لكانت لهم صفات جديدة" [1].

فدعوى "رينان" – ومن ذهب مذهبه – بأن الفلسفة الإسلامية عقيمة، وتعليله لذلك بأن الجنس السامي الذي انتجها ليست له القدرة على التفلسف – وقد اتضح أن معظم فلاسفة الإسلام كانوا من الجنس الآرى ولم يكونوا من الجنس السامي – دعوى باطلة،

وهذا ما نبهنا إليه الأستاذ "بروهيه" بقوله:" كان فلاسفة العرب ممن اعتنقوا الإسلام، وكانوا يكتبون آثارهم باللغة العربية، لكن جمهرتهم لم تكن من أصل سامي، بل من أصل آرى، لذلك التسموا موضوعات تفكيرهم في الكتب اليونانية [2].

فكيف نفسر ذلك إذا كان تعليل "رينان" لعقم الفلسفة الإسلامية صحيحاً؟ ثم إن الأجناس من شأنها أن تختلط، ويصعب علينا أن نجد جنسا محافظاً على سلالته. وما ذكره الأستاذ "بروهيه" يحطم كل الآراء التي تذهب إلى القول بالفرق بين الأجناس، فالصفات أو الخصائص الفطرية في العقل البشري واحدة، لا اختلاف فيها بين الشعوب والأجناس، وإنما الاختلاف في الصفات المكتسبة من البيئة.

ففكرة الجنس الذي يتصف بخصائص ثابتة قد هوجمت من نواحي متعددة، فمن الناحية الفسيولوجية نجد أن العلماء قد دللوا على نسبية المقاييس التشريحية التي وضعت لتحديد أنماط الأجناس

---

(١) تمهيد في تاريخ الفلسفة الإسلامية، ص٢٢.

(٢) تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية، ص٢٢، ٢٣.

المختلفة اعتماداً على لون الشعر ولون العينين ومقياس الجمجمة مثال: تجربة أجريت على شعب الباسك في شمال أسبانيا". وكذلك فإنه لا يمكن اعتبار الجنس وحده سيكولوجية، فقد أشارت أبحاث علم النفس للجماعة وعلم النفس الاجتماعي إلى أن التزاوج والغزو والهجرات وما يتبعها من انتشار ثقافي يجعل من العسير بل من المستحيل أن نتكلم عن جنس نقى مغلق يعيش تحت ظروف جغرافية ومكانية ثابتة، ذلك أن صفات الأمم كما يقول "جيوبيبل تاود" تتغير تبعاً للتطور التاريخي، ويصبح التعليل الذي يستند إلى الطبيعة الثابتة للأجناس عنوانا على جهلنا بحقائق الأشياء وكسلنا عن تحرى الأشياء الحقيقة[1].

وقد أثبت علماء البيولوجيا بالأدلة العلمية بطلان الدعوى العنصرية، وإمكان وجود جنس نقي ذى خصائص ثابتة عبر التاريخ، فقد تمخضت أبحاث علماء الوراثة عن أن وحدة المورثات في التوائم التي خرجت من بويضة واحدة لا تستلزم وحدة النتائج في اختبارات الذكاء، في حين أن وحدة البيئة الحضارية وظروفها تستلزم ذلك، بل إن الموروث الواحد يتخذ تعبيرات مختلفة متنوعة، وهذه التعبيرات تتأثر في الفرد الواحد بعوامل مختلفة [2].

وإذا كان الفرد الواحد يخضع لتغيرات كهذه فكيف الحال بالأمم والشعوب ؟ والواقع أن حضارة من يسمون بالآريين قد أسهم فيها غيرهم كما يؤكد علماء الأنساب، ثم إن الأصل في هذا التصنيف ليس يرجع إلى أبحاث علماء اللغات، فكيف يمكن أن يطبق التصنيف اللغوي

---

(١) تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام، د./ أبو ريان، ص١٢.

(٢) السابق، ص١٢، ١٣.

علـــى الـــسلالات والأجـــناس، ولـــيس هـــناك علاقة حتمية بين اللغة والـــسلالة؟ ثـــم إنـــه إذا كانت دعوى العنصريين صحيحة من الناحية العلمـــية فلماذا يشتد الهجوم على نوع واحد من الساميين وهم العرب وعلـــى الـــدين الإسلامي وحده، ويغفل المهاجمون أمر اليهود ودينهم وتراثهم وهم أيضا ساميون.

ولـــيس أدل علـــى تهافت دعواهم من أن الفلسفة الإسلامية لم تكـــن وليدـــه الفكـــر العربي وحده بل لقد أسهم في إنتاجها أفراد من شعوب غير عربية، أي غير سامية، مثل الفرس والروم والخرسانيين وغيرهم، وهذا ما يوقعهم في تناقض فاضح [1].

كذلك أخطأ "جوتييه" حين حاول أن يثبت أن الفكر الإسلامي تنقـــصه موهبة التنسيق والتجميع في البحث الفلسفي وغير الفلسفي. إن ميزة الفلسفة الإسلامية المشائية نفسها أنها فلسفة موفقة متسقه، ثـــم إنـــنا لا ننسى أيضا أن المسلمين نسقوا وركبوا المذاهب في علم التوحيد، وفي علم أصول الفقه، وفي غيرها من العلوم العقلية، تنسيقا لم يظفر به اليونان من قبل ولا غير اليونان من الأمم الأخرى.

وقـــد أجمـــل "جوتييه" مناقشة المشكلة التي أثارها "ريـــنان" ومـــن ذهـــب مذهـــبه – قائلا: "إن هذه هي عقلية الدين الإسلامي – الـــسامية – وروحه في حقيقتها ووقائعها ما ظهر منها وما بطن، هو ديـــن ســـام بحت مفرق وموحد بأضيق المعاني وغير عقلي ، لا يتفق والتفكيـــر الحـــر، وقليل الميل إلى التصوف، ولو في عهده الأول على

---

(١) السابق، ص١٣، وقارن التفكير الفلسفي في الإسلام، د./ عبدالحليم محمود، ص ١٩٢ – ١٩٣، وقارن، في الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيقه، ١٧/١.

الأقل، ومن ثم في روحه الحقة، ومن المحال أن نتصور دينا أكثر منه تعارضا مع الفلسفة الإغريقية الآرية بأعمق المعاني، إذ هي فلسفة مجمعة عقلية حرة التفكير[1].

وبناء على هذه النتيجة العامة التي ساقها "جوتيبيه" يكون العقل السامي عاجزاً عن استخلاص القوانين والقضايا ووضع الفروض أو النظريات، ومن ثم فإنه يمتنع على العقلية الإسلامية أن تنتج آراء علمية أو مذاهب فلسفية، وبذلك تكون الفلسفة الإسلامية نوعا من التكرار للفلسفة اليونانية.

وإذا تركنا "رينان" و"جوتيبيه" وذهبنا إلى مستشرق أخرى مثل "ديبور" نجده يصرح بأن "الفلسفة الإسلامية ظلت طوال حياتها فلسفة انتخابية قوامها الاقتباس مما ترجم من كتب الإغريق، ومجرى تاريخها أدنى أن يكون استمداداً من معارف السابقين لا ابتكاراً. ولم تتميز عن الفلسفة التي سبقتها بافتتاح أبحاث جديدة، ولاهي انفردت بجديد فيما حاولته من معالجة المسائل القديمة، فلا نجد لها في عالم الفكر خطوات جديدة تستحق أن نسجلها لها[2].

ثم يستطرد "ديبور" في أحكامه الجائرة على الفلسفة الإسلامية فيقول: "ونكاد لا نستطيع أن نقول أن هناك فلسفة إسلامية بالمعنى الحقيقي لهذه العبارة، ولكن كان في الإسلام رجال كثيرون لم يستطيعوا أن يردوا أنفسهم عن التفلسف، وهم وإن اتشحوا برداء

---

(١) المدخل إلى الفلسفة الإسلامية، جوتييه، ترجمة د./ محمد يوسف موسى ص ١٧٦، ط: دار الكتب الأهلية ١٩٤٥م.

(٢) تاريخ الفلسفة في الإسلام، للمستشرق الألماني ديبور، ترجمة د./ عبدالهادي أبوريده، ص٥٠ ط٥، النهضة المصرية.

اليونان فإن رداء اليونان لا يخفى ملامحهم الخاصة، ومن اليسير علينا أن نستهين بشأنهم إذا أطللنا عليهم من ذروة إحدى المدارس الفلسفية الحديثة المزهوة بفلسفتها، ولكن يحسن بنا أن نتعرفهم في بيئتهم التاريخية(١).

ويحاول ذلك المستشرق الألماني: أن يجعل للفلسفة اليونانية قداسة لدى فلاسفة الإسلام، وأن يجعلها المقياس والمعيار، وإن شئت فقل "الترمومتر" الذي ينبغي أن تقاس به كل فلسفة أو أي فكر، بحيث إذا جاءت هذه الفلسفة مطابقة كما قالته الفلسفة اليونانية أخذوها ورفعوا من شأنها وعدوها فلسفة بمعني الكلمة. أما إذا جاء هذا الفكر مخالفا لمعيارهم رفضوه وردوه وقللوا من شأنه، لأن الفلسفة اليونانية تعبر عن حضارتهم وثقافتهم ،فهو يحاول في مواضع كثيرة أن يبين أن فلاسفة الإسلام أظهروا احتراما عظيما لكتب الإغريق وفلاسفتهم لايقل عن الاحترام الذي أظهره نبي الإسلام – صلى الله عليه وسلم – للكتب السماوية الأخرى. حيث يقول:"وقد أظهر علماء المسلمين فيما بعد من الاحترام لكتب العلوم اليونانية مثل ما أظهره محمد صلى الله عليه وسلم من احترام لكتب اليهود والنصارى المقدسة، وكان هؤلاء العلماء أعرف بالكتب التي رجعوا إليها، ولكنهم كانوا أقل حظاً من الابتكار، كانوا يرون أن قدماء الفلاسفة سلطانا في العلم يجب الخضوع له، وكان المفكرون الأولون في الإسلام مؤمنين بسمو العلم اليوناني حتى لم يكن يخالط نفوسهم ريب في أنه قد بلغ أعلى درجات اليقين، ولم يخطر على قلب أحد من الشرقيين أن يبحث بحثا مستقلا في أمور

---

(١) السابق، ص٥١، وقارن: علم الكلام ومدارسه، د./ فيصل بدير عون ص٤٥، ط: القاهرة ١٩٧٠م.

لـم يطـرقها أحـد قبله، لأن الشرقي يرى أن من لا شيخ له فشيخه الشيطان"[1].

هذه النتيجة التي ينتهى إليها "ديبور" ناشئة عن نظرة سطحية للفلسفة الإسلامية، وعن النظر إلى الملامح اليونانية خصوصا من حيث المادة والاصطلاحات، لكن الحقيقة هي أن المعاني التي قصدها فلاسفة الإسلام لم تكن دائما هي المعاني اليونانية، وقد أثار كل من متكلمي الإسلام وفلاسفته مشكلات ووصلوا إلى حلول وكونوا مفهومات لم يعرفها اليونان، وقد فصل العرب في بحث المسائل تفصيلا يضمن لهم الاستقلال.

ولعل "ديبور" قد دحض نفسه بنفسه، فبينما هو يقلل من شأن الفلسفة الإسلامية وطبيعة العقل العربي، نراه ينفي ذلك ويشير إلى دورها الهام والرئيسي في تاريخ الفكر العلمي حيث قال: " ومع هذا فشأن الفلسفة الإسلامية من الوجهة التاريخية، أكبر كثيراً من مجرد الوساطة بين الفلسفة القديمة وبين الفلسفة المسيحية في القرون الوسطى" [2]، ثم يقول: ولتاريخ الفلسفة الإسلامية شأن، لأنه يرينا أول محاولة للتغذي بثمرات الفكر اليوناني تغذيا أبعد مدى وأوسع حرية مما كان عليه الأمر في نشأة علوم العقائد عند النصارى الأولين"[3].

يتضح مما سبق أن "ديبور" كان حائراً بين الاعتراف بفضل المسلمين على من جاء بعدهم، وبين التقليل والتهوين من شأنهم بزعم

(١) السابق، ص٤٨.

(٢) نفس المصدر، ص٥٠.

(٣) السابق، ص٥١.

أن مـــا لديهم لايضيف جديداً إلى التراث الفلسفي. ونحن بطبيعة الحال نـــرى أن حكمـــه على الفلسفة الإسلامية حكم جائر، فلمفكرى الإسلام فلـــسفتهم الخاصة، ورغم أنه لا توجد في تاريخ الفكر فلسفة مستقلة حتـــى ولا اليونانية، فإن لكل فلسفة طابعها ومشكلاتها ومساهمتها في التراث الفكري الإنساني.

هذا هو رأي "ديـبور" أحد المستشرقين الغربيين الذين اهتموا بدارســـة التـــراث الشرقي الإسلامي، وخاصة الفلسفة الإسلامية، ملئ بالأحكـــام الجائـــرة، والتي لا نوافق عليها بل نفرضها وندحضها. فقد زعـــم أن المـــسلمين كانوا يرون أن القدماء الفلاسفة سلطانا في العلم يجب الخضوع له... إلخ، والحقيقة غير ذلك، حيث أنه ينبغي أن نميز بـــين مـــرحلتين، مـــرحلة الترجمة، حيث التلقي والاستيعاب، ومرحلة لاحقـــة لهذه وأعني بها دراسة الترجمات وتفنيدها وشرحها والتعليق عليها والأخذ منها، والاعتراض والرد عليها[1].

فلم يكن فلاسفة الإسلام مجرد نقلة أو تابعين أو مقلدين، كيف نوافق "ديبور" على رأيه هذا ونعقله، وبين أيدينا شواهد كثيرة تبرهن علـــى بطلان رأي "ديبور" فالذى يطالع -مثلا- كتاب "تهافت الفلاسفة" للإمـــام أبـــو حامد الغزالي ، وكتب علم الكلام والتصوف، وبعض كتب الـــسلفين مـــثل كتاب نقض المنطق والرد على المنطقين "لابن تيمية"، وغيـــر ذلـــك كثير، يتبين له أن فلاسفة المسلمين ما كانوا تابعين أو مقلـــدين. فمـــاذا يـــسمى "ديـــبور" المـــباحث التي خاضها المتكلمون والـــصوفية حتـــى يقـــول أنه لم يخطر على قلب أحد من الشرقيين أن يبحث بحثا مستقلا في أمور لم يطرقها أحد قبله؟.

---

(١) كتابنا: الفلسفة الإسلامية بين الأصالة والتقليد، ص٧٨.

أما ما ذكر "ديبور" من أن حكماء الإسلام قد قلدوا اليونانيين تقليدا أعمى وذلك بناء على ما ذهب إليه من أنهم يرون أن من لا شيخ له فشيخه الشيطان، نقول إن "ديبور" لم يكن أمينا في استخدامه هذا التعبير في هذا الصدد. لأن هذه العبارة وردت على لسان الشيخ الأكبر "محي الدين بن عربي" وهو كما نعلم صوفي، والطريق عند الصوفية يحتاج إلى شيخ أو مرشد، هذا في مجال التصوف، أما في الفلسفة فلم يذكر أحد من حكمائها هذه العبارة، ولم تجر على لسان واحد من متكلمي الإسلام، اللهم إلا الشيعة لاعتبارات مذهبية، فكيف يطلقها "ديبور" هكذا على الفلسفة الإسلامية عامة مستخلصا منها صفة التقليد الأعمي[1].

وهذا الذي أشرنا إليه من نقد "لرينان" و"جوتيبيه" و"ديبور"، قد ذهب إليه من قبل أحد المستشرقين الألمان وهو "دوجا" فقد ذهب إلى أن مثل هذه الأحكام الصادرة عن الهوى، والتى جحدت تراث المسلمين لا مبرر لها حيث يقول: "هذه أحكام تذهب في البت إلى حد الشطط، ومصدرها سواء التجديد للفلسفة وجهلنا بما للعرب من مصنفات غير شروحهم لمؤلفات أرسطو. وما أسوق إلا شاهداً واحداً : يظن ظان أن عقلاً كعقل ابن سينا لم ينتج في الفلسفة شيئا طريفا؟ وأنه لم يكن إلا مقلدا لليونان؟ وهل مذاهب المعتزلة والأشاعرة ليست ثماراً بديعة انتجها الجنس العربي"[2].

---

(١) تاريخ الفلسفة الإسلامية في المشرق الإسلامي، ص٦٥.

(٢) تمهيد ص ١٣ نقلاً عن كتاب تاريخ الفلسفة والمتكلمين لمؤلفه دوجا، ط: باريس ١٨٨٩م، وقارون، تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام ، ص١٤.

ثم أورد "دوجا" رأي مونك "لأنه -كما يرى- أقرب إلى الصواب، وهذا الرأي هو "يمكننا أن نقول في الجملة أن الفلسفة لدى العرب لم تتقيد بمذهب المشائيين صرفا، بل هو توشك أن تكون قد تقلبت في كل الأطوار التي مرت بها في العالم المسيحي، ففيها مذهب أهل السنة الواقفين عند النصوص، ومذهب الشك، ومذهب التولد بل فيها مذاهب شبيهة بمقال "اسبينوزا" ومذهب وحدة الوجود الحديث [1].

"ومونك" إذ يقول: إن الفلسفة العربية تقلبت في جميع الأدوار التي مرت بها الفلسفة المسيحية يخالف قول المستشرق "تنمان" الذي تعصب لدينه في قوله:"أن القرآن وهو كتاب الإسلام المقدس يعوق النظر العقلي الحر، ويثبت أن الإسلام ليس دون المسيحية اتساعا لنمو الفكر الفلسفي وتطوره، وهو أيضا بقوله هذا لا يؤيد دعوى انحطاط الجنس السامي عن الجنس الآرى فيما يتعلق بالتفكير الفلسفي[2].

ونخلص من المناقشات: التي أوردناها حول مشكلة الأصالة في الفلسفة الإسلامية وقدره العرب على التفلسف بصفة خاصة والمسلمين بصفة عامة إلى ما يأتي:

أولاً: أن دعوى التمييز العنصري لا تستقم مع المنطق، ولا تستند على أي أساس علمي، فلا يمكن التمييز بين العرب وغير العرب من حيث الجنس والطبيعة، ثم إن الصفات التي يلحقها هؤلاء العنصريون بالعرب إنما تنطبق على العرب في جاهليتهم فحسب بتأثير البيئة الصحراوية، وقد مرت كل الشعوب بهذا الطور، والشعب

---

(١) المصدر السابق ص١٤ .

(٢) نفس المصدر ص١٥ .

الإغريقـــي من بينها. ولما تحضر العرب في العصر العباسي كانت لهم مـــشاركة فعلية في الحركة العلمية، وإن اتجه معظمهم بحكم العصبية إلى الرياسة وتدبير شئون الدولة، فليس للطبع أو العنصر أثر في هذا الاتجاه. فنظرية التفرقة في الخصائص والمواهب والصفات بين جنس ســـامي وجنس أرى نظرية مزيفة أدي إلى نشأتها العواطف والتعصب والهوى والعداوة ضد الإسلام كانا سببا في رواجها وانتشارها.

ثانياً : أن المـــسلمين انـــتجوا فلسفة خاصة بهم، جديرة بأن تسمى فلسفة إسلامية ، أسهم فيها مفكروا الإسلام من الشعوب الإسلام المختلفة من عرب وروم وسريان وفرس ويونان.

ثالثاً : إنه على الرغم من أصالة الفلسفة الإسلامية، وظهورها عـــند المسلمين حينما نضجت العقلية الإسلامية ووصلت إلى المستوى الذي تستطيع أن تنتج فيه فلسفة، إلا أن المسلمين تشوقوا إلى الإطلاع على الأنظار العقلية للأمم الأخرى التي سبقتهم في هذا المجال، فنقلت إلـــيهم فلسفة اليونان والفرس والهند وبذلك خضعوا لتأثيرات يونانية وفارســـية وهندية ومسيحية وغنوصية وقد اعترف المسلمون أنفسهم بذلك في مؤلفاتهم.

علـــى أنـــنا لا يمكـــن بحال أن نسلم بالرأي القائل بأن جهود فلاســـفة الإســـلام اقتـــصرت على فهم الفلسفة اليونانية والتعبير عن مـــشكلاتها باللغـــة العـــربية فحسب. فقد كانت هناك إلى جانب حركة التوفـــيق بين الدين والفلسفة اتجاهات فلسفية إسلامية، تتضمن أبحاثا مبتكـــرة فـــي المـــنطق، وفي الإلهيات ، وعلاقة الله بالعالم ومصير الإنسان وأفعاله، وكذلك كانت لهم أبحاثهم الجديدة في الميدان الطبيعي

والفلكي، وهذه مسائل كانت تدخل في دائرة البحث الفلسفي في العصر القديم[1].

والحـــق أننا لا نستطيع أن ننكر تأثر فلاسفة الإسلام من أمثال الفارابـــي وابـــن ســـينا وأبـــي البركات البغدادي وابن رشد وغيرهم بالفلسفة الإغريقية، ونرى أن إنكار ذلك نوع من المكابرة، ولكننا نرى مـــن جانـــب آخـــر أن الـــزعم بأن المسلمين لم يفعلوا شيئا أكثر من محاكـــاتهم لليونانيين فيه أجحاف كبير لفلاسفة الإسلام. حيث كان لهم مـــوقفهم المـــستقل وشخصيتهم المتميزة في تمحيص الآراء ومعالجة المشاكل ، وفضلا عن ذلك فإنه قد ناقشوا موضوعات لا وجود لها في الفلـــسفة اليونانـــية، وهـــي الموضوعات التي اقتضاها دينهم وبيئتهم الإسلامية.

ثـــم إن الفلسفة لا تنحصر فقط في فكر الفلاسفة الذين تأثروا بالفلسفة اليونانية، أمثال الفارابي وابن سينا وابن رشد وغيرهم، وإنما تتـــضمن ميادين أخرى مثل: "علم الكلام"، و"التصوف" و"أصول الفقه"، ولا يمكـــن القول بأن هذه المجالات كانت تقليداً للفلسفة اليونانية، ولا يغيب عن أذهاننا الصراع الذي دار في المحيط الإسلامي بين الفلاسفة والمتكلمين وبلغ ذروته عند الغزالي ونقده للفلسفة والفلاسفة".

فمـــن أراد أن يحكـــم علـــى الفلسفة الإسلامية حكما صحيحاً فليـــبحث أولاً فـــي مجالاتها المختلفة وليتعرف على طبيعتها، ثم يحكم عليها بموضوعية وحيدة دون تعصب ودون تسرع ودون شطط، ولكن

---

(١) كتابنا: الفلسفة الإسلامية بين الأصالة والتقليد، ص٨٢-٨٣.

أحكـــام المســتــشرقين المتعصبين لم تلتزم بهذه المبادئ، ومن ثم فقد بعدت عن الحقيقة وجانبت الصواب [1].

ولعل من أهم الدوافع التي دفعت بعض المستشرقين إلى تشويه صورة الفلسفة الإسلامية وإبعادها عن مواطن الأصالة والابتكار هي:

١- النظـــر إلـــى الفلــسفة الإغريقية على أنها المقياس الذي ينبغـــي أن تقـــاس بـــه أي فلسفة، وكان من الضروري أن تقود هذه النظـــرة أصحابها إلى إصدار أحكام خاطئة على الفلسفة الإسلامية، ولا ريـــب فـــي أن ذلك ينطوي على قصور في النظر منهم فمن التحكم أن يـــتخذ المرء من شيء معين مقياساً ثم يحاول تطبيقه على غيره دون اعتبار للظروف التي أحاطت به ووضعت له حدوداً ومقاييس أخرى.

فهـــم كمـــا يقول بعض الباحثين الغربيين المنصفين:" يضعون مقايـــيس صـــارمة يحكمون بموجبها على ما أنتجه الفكر الإسلامي، مقاييس أشد صرامة من تلك التي نطبقها على ذواتنا –نحن الغربيين– فـــإن العـــدل والإنـــصاف يقتضيان أن نميز بين مختلف أنواع النشاط الأدبـــي ومـــراتبه التى من شأنها أن تترك أثراً بعيد الغور في طبيعة النـــتاج العلمي الرفيع"[2]. فالذي يستفاد من هذا النص أن هذا الباحث الغربـــي قـــد لاحـــظ أن كثيراً من آراء المستشرقين الغرب المشوهة للفلـــسفة الإســـلامية مبعـــثه في الواقع شعور هؤلاء بالعلو والتفوق شـــعوراً لا يعـــتمد على منطق مقبول. فهؤلاء في نظره قد وقعوا في

---

(١) السابق، ص٨٤.

(٢) انظـــر: مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي. تأليف روزنتال، ص١٩. تـــرجمة أنيس فريحه، ط: بيروت ١٩٦١م – وقارن أصاله التفكير الفلسفي في الإسلام، ص٣٣.

بعـض المـزالق الخطيـرة عند تقديرهم للبحث العلمي والتفكير عند المسلمين.

٢- التـسرع فـي إصدار أحكام على الفلسفة الإسلامية بدون استيعاب لمصادرها واستعراض لجوانبها، وإنما حكموا عليها من خلال الإطلاع عل ما وقع في أيديهم، ويبدوا أن معظمه كان يتصل بالفلسفة اليونانـية وشـروح المسلمين عليها، وقد صدرت هذه الأحكام قبل أن تنـشر أمهـات كتب فلاسفة الإسلام وعلماء الكلام وأعلام الصوفية، وفقهـاء الأصـول، ومعنى هذا أنهم حكموا عليها في غيبة جزء كبير وهام منها.

ولاشك أن عدم استيعاب: هؤلاء المستشرقين لمصادر الفلسفة الإسـلامية وعدم استعراضهم لجوانبها المختلفة كان من الأسباب التي جعلـت أحكامهم عليها بعيدة عن الصواب، لان الحكم على الشئ فرع مـن تـصوره، وإذا كـان التـصور ناقصا فإن الحكم لا يكون دقيقا، فالفلـسفة الإسـلامية لا تـوجد برمتها حتى الآن أمام دارس الفلسفة الإسـلامية، ومن ثم فإن جزءاً كبيراً وهاماً منها قد يغيب على نفر من المستـشرقين. وإلـى جانـب ذلك فإن للفلسفة فروعا ثلاثة هي: علم الكـلام، والفلـسفة العقلية الخاصة، والتصوف الإسلامي، وقد ينخرط المستـشرق فـي مـبحث واحد من هذه المباحث فيحكم على الفلسفة الإسلامية من خلال هذا المبحث وحده غافلا عن المبحثين الآخرين.

٣- وممـا ساعد على تشويه الفلسفة الإسلامية والتقليل من شـأنها كفلسفة من الطراز العالمي الرفيع، عدم الالتزام بالموضوعية، والانـسياق وراء الهوى والعصبية في الحكم على هذه الفلسفة، ونحن نعلم أن الحكم الصادر عن الهوى لا يغني عن الحق شيئا. وهذا الدافع

يعتبر الأساس الذي يحرك كل أولئك المستشرقيين الذين يحاولون تشويه الفلسفة الإسلامية وينالون من أصالتها، ويشككون المسلمين في عقائدهم.

وقد اتضح لنا كيف أن التعصب الديني قد سيطر على "تنمان" و"كوزان" فأعماهما عن الحقيقة وأضلاهما عن الحق، لأن الحكم الصادر عن الهوى يلتبس بالباطل ويشوه الحق. أما التعصب الجنسي أو النزعة العنصرية التي حاول بها "رينان" أن يضفي على مزاعمه وغيرها من المزاعم التي تنال من المسلمين ومن تراثهم ثوبا علميا، فقد جعلته لا يرى للمسلمين شيئا ذا بال في مجال الفلسفة ، وأخرجته عن الالتزام بأصول البحث العلمي التي تتمثل في النزاهة والحيدة والموضوعية والبعد عن الهوى والميول الشخصية [١].

وأياً ما كان الأمر فقد تداعت هذه الدعوى العنصرية أمام البحث العلمي الدقيق، وظهر أن طبيعة العقل البشري واحدة عند الشعوب جميعها كما أثبت التاريخ:" أن الحياة العقلية في كل شعب مد وجزر، وأن القبس ينتقل من يد إلى يد كان أول مره في يد الشرق القديم، ثم تسلمه اليونان والرومان قديما، وحمله المسلمون في العصور الوسطي إجمالا، ثم تلقاه عنهم الأوربيون في أواخر العصور الوسطي وأبان عصر النهضة[٢].

٤- طبيعة الهدف الذي كان يسعى إليه المستشرقون، فنحن نعلم أن الفلسفة اليونانية قد نقلت إلى اللغة العربية وقام المسلمون في

---

(١) أصالة التفكير الفلسفي في الإسلام، ص٣٣، ٣٤، وكذلك : كتابنا الفلسفة، الإسلامية، ص٨٦ – ٧٨.

(٢) أسس الفلسفة، د./ توفيق الطويل، ص٣٧٨، ط٢، النهضة المصرية ١٩٥٥م.

هـذا الصدد بأبحاث عارمة، ولاشك أن الفلسفة اليونانية كان لها دور رئيسي وهام في نشأة الفلسفة الإسلامية، سواء كان دوراً إيجابيا أو سلبيا، ونعلم أن المسلمين قد وقفوا عدة مواقف من هذه الفلسفة بين مؤيد ومعارض، بين شارح وملخص ، وبين مفند وداحض، ونعلم كذلك أن الفلسفة اليونانية لم يكن لها وجود إلا عند المسلمين، لأنها قد فقدت في مظانها الرئيسية، فلما أن أراد الأوربيون أن يحصلوا على فلسفتهم لم يجدوها إلا عند المسلمين، فأخذ العقل الأوروبي يفتش عن الفلسفة الإغريقية في أفرع الفلسفة الإسلامية الثلاثة: الكلام والتصوف ثم الفلسفة، وكان أن وجد هذه الفلسفة موجودة كلها عند الفلاسفة الإسلاميين أمثال "الفارابي" و"ابن سينا" وأبي البركات البغدادي" و"ابن رشد".

ومن هنا كان اهتمام المستشرقين منذ بداية الأمر بالفلاسفة دون غيرهم، لأن المستشرقين أرادوا أن يأخذوا من المسلمين ما أخذه المسلمون منهم في بداية الأمر، ولعل هذا هو السبب في أن الدراسات الفلسفية الإسلامية قد شغلت العقل الأوربي أكثر مما شغله علم الكلام والتصوف [1].

لقد حكم المستشرقون على الفلسفة الإسلامية من خلال الفلسفة الإسلاميين فحسب دون غيرهم، ولا شك أن معظم فلاسفة الإسلام الكبار قد تابعوا إلى حد غير قليل الفلسفة اليونانية وأعجبوا بها وأيدوها وحاولوا التوفيق بينها وبين الدين الإسلامي، وكثيراً ما كان هذا التوفيق يتم على أيديهم لصالح الفلسفة، وكثيراً ما كان

---

(١) كتابنا: الفلسفة الإسلامية بين الأصالة والتقليد، ص٨٨.

المضحي به الدين لا الفلسفة والفلاسفة، كفلاسفة وجدوا أنفسهم كثيراً في أحضان الفلسفة اليونانية.

فإذا ما جاء نفر من المستشرقين وطالع كتب فلاسفة الإسلام ووجد هذا الشبه الكبير بين ما قالوه وبين ما قاله من قبل "سقراط" و"أفلاطون" و"أرسطو" حكم على الفلسفة الإسلامية بالعقم وبأنها لم تقل شيئا لم تسبقه إليه الفلسفة اليونانية".

ونحن لا ننكر أن التفكير الفلسفي في الإسلام قد تأثر بالفلسفة اليونانية، ولا ننكر أيضا أن نفراً من هؤلاء الفلاسفة الإسلاميين قد تابع إلى حد كبير الفلاسفة اليونانيين فيما ذهبوا إليه، لكننا ننكر أن يكون كل ما قاله الإسلاميون يرد إلى الفلاسفة اليونانيين، وأن المسلمين قد تابعوا الفلاسفة اليونانيين متابعة عمياء. لأن التقليد في حد ذاته يعاند الفلسفة، فلا يوجد في تاريخ الفلسفة كلها، كما قال بعض المستشرقين ، فيلسوف أفلاطوني خالص أو أرسطي خالص، فلماذا لا نعمم هذا الحكم ونقول: أنه لا يوجد فيلسوف إسلامي أفلاطوني خالص أو فيلسوف إسلامي أرسطي خالص[١]. لأنه ليس في تاريخ الفكر الصحيح تقليد، "فالفكر الفلسفية عندما تنتقل إلى بيئة ثقافية أخرى، وتدخل في نظام فكرى جديد، تتغير من وجوه شتى، وهي في هذه الحال، ليس ملكا لأهلها الأولين، بل ملكا لأصحابها الجدد الذين اتخذوا منها نقطة بداية لنزعات جديدة تناسب روحهم، وجملة تفكيرهم الفلسفي [٢].

---

(١) تاريخ الفلسفة الإسلامية في المشرق، ص٢٢، وما بعدها.

(٢) التفكير الفلسفي في الإسلام، د./ عبدالحليم محمود، ص١٩٦.

ثم إنه لا ينبغي لنا أن ننسى أن فلاسفة الإسلام كانوا كثيراً ما يأخـذون بعض جوانب من فلسفة "أفلاطون" ويرفضون البعض الآخر، وكانوا أيضا يقومون بأخذ بعض جوانب فلسفة أرسطو تاركيين البعض الآخـر، وهذا يعني أن المسلمين لم يتابعوا هذا أو ذاك متابعة عمياء، وإنمـا أخـذوا مـن هذين الفيلسوفين الآراء والاتجاهات التي تناسب عقـيدتهم وآراءهـم. وهـذا يعنـي أن للمـسلمين موقفهم المستقل وشخـصيتهم المميزة، وأن لهم منهجهم الخاص في معالجة المشاكل، وقد اتضح هذا المنهج في الإفادة من هذا وذاك، وحيث كانوا يمحصون الآراء ويفندونها قبل أخذها ووضعها في مبناهم الفلسفي الجديد.

ولا يغـيب عـن أذهننا ونحن نناقش هذه القضية أن فلاسفة الإسلام قد ناقشوا موضوعات لا وجود لها في الفلسفة اليونانية، وهي تلـك الموضوعات التي فجرها أمامهم الدين الجديد مثل مسألة القضاء والقـدر، ومـسألة البعث، ومشكلة الوحي، والصلة بين منطق السماء الوحي، وبين منطق الأرض العقل... وغيرها من أبحاث جديدة وطريقة وبكـر، خاضها الفلاسفة المسلمون وكتبوا فيها مباحث كبرى رئيسية، فكيف يمكن القول إذن، أن الفلاسفة المسلمين مجرد نقلة أو مترجمين أو شارحين لفلاسفة الإغريق [(١)].

ثـم إن الفلـسفة الإسـلامية، لا تعنـى فقـط الفارابي وابن سـينا وابـن رشـد وغيـرهم من الفلاسفة، ولا تعني المعتزلة فقط، أو الأشـاعرة، ولا تعنـي جماعـة الـصوفية، إنهـا تعنـي هؤلاء جمـيعا فمـن الجحـود والجحـاف فـي الـرأي تجاهـل علم الكلام

---

(١) كتابنا: الفلسفة الإسلامية بين الأصالة والتقليد، ص٩٠ – ٩١.

والتصوف. إن هذين المبحثين لا وجود لهما من قريب أو بعيد في الفلسفة اليونانية، وإنما هما إبداع جديد فجره الدين الإسلامي في عقول وقلوب نفر من المسلمين، وعندي أن أي حكم على الفلسفة الإسلامية في غيبة هذين المبحثين حكم أبتر ومشوه ولا وزن له، لأن إبداع العقل الإسلامي كان واضحا في كل صفحة من صفحات علم الكلام والتصوف[1].

فلعل القول بأن علم الكلام أصدق تعبيراً عن الفلسفة الإسلامية من فلسفة "الفارابي" و"ابن سينا" وغيرهما مما يطلق عليه المشائية الإسلامية غير مجاوز للصواب، لأن هذه الأخيرة - أعني الفلسفة المشائية - متأثرة بفلسفة اليونان، أما علم الكلام فهو إسلامي النشأة إسلامي المنهج، إسلامي الغاية، ولذلك فمن أراد أن يقف على فلسفة للمسلمين فخير له أن ينظر في هذا العلم من أن ينظر في فلسفة الفارابي وابن سينا، وإن كان للمسلمين في هذه الأخيرة جهود لا تذكر.

فعلم الكلام دليل على قدرة المسلمين على التفكير والتفلسف وبراعتهم في الجدل والمناظرة عكس ما يظن البعض أو يتوهم، فما أكثر ما يعج علم الكلام بالبراهين والأدلة وما أكثر ما يمتلئ بالحوار والجدل، وهو في كل ذلك يستخدم العقل أدق استخدام، حتى إنك لتعجب من تلك القدرة العقلية الفائقة

---

(١) تاريخ الفلسفة الإسلامية في المشرق، ص٢٧.

فيه لعلماء الكلام، وكيف يلجون بعقولهم مسالك جد ضيقة يعالجون فيها دقيق الكلام وجليله[1].

وأخيراً ندعو الله تعالى أن ينفع ببحثنا هذا طلاب العلم والدين، وأن يرزقنا الإخلاص فيما نكتب ونعمل، إنه نعم المجيب.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

المؤلف

دكتور/ محمد حسن المهدي

أستاذ العقيدة والفلسفة بالجامعة الأزهرية

---

(١) انظر: المقالات العشر في فهم علم الكلام وقضاياه، د./ عبدالفتاح الفادي، المقدمة، ط: القاهرة، ١٩٩٣م.